(فَارِسُ هَوَازِنَ لِلْأَدِيبِ الْكَاتِبِ الْإِسْلَامِيِّ الدُّكْتُورِ نَجِيبِ الْكِيلَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ)

شَبَابٌ وَمَالٌ وَسُلْطَانٌ عَرِيضٌ، وَشَجَاعَةٌ مُفْرِطَةٌ، ذَلِكَ هُوَ «مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ» زَعِيمُ قَبَائِلِ «هَوَازِنَ» .. لَمْ يَكُنْ قَدْ تَخَطَّى الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ حَاسِمَ الرَّأْيِ، قَاطِعَ الْكَلِمَةِ، لَا يُطِيقُ الْجَدَلَ، وَيَكْرَهُ أَنْ يُعَارِضَهُ أَحَدٌ، لَا يَأْتِي عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا وَيَتَجَلَّى فِيهِ حَمَاسُهُ وَإِخْلَاصُهُ .. حَتَّى وَلَوْ كَانَ يَمْضِي فِي طَرِيقِ الْخَطَإِ! لَا تُرَاوِدُهُ الشُّكُوكُ فِي رَأْيٍ ارْتَآهُ .. وَيَكْرَهُ أَنْ يُطِيلَ التَّفْكِيرَ فِي شَيْءٍ مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ.

لَكِنَّ الْأَمْرَ هَذِهِ الْمَرَّةَ جِدُّ مُخْتَلِفٍ .. لَقَدِ انْتَصَرَ مُحَمَّدٌ، وَفَتَحَتْ لَهُ «مَكَّةُ» أَبْوَابَهَا .. أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ هِيَ الْعُلْيَا، وَلَيْسَ أَمَامَ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ سِوَى أَنْ يَدِينَ بِالطَّاعَةِ لِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، أَوْ يَحْشِدَ هَوَازِنَ لِضَرْبِ الْمُسْلِمِينَ وَالِاحْتِفَاظِ بِسُلْطَانِهِ وَكِبْرِيَائِهِ .. لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَارَ مَالِكٌ أَيَّ السَّبِيلَيْنِ.

وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْفِيَ مَا انْتَابَهُ مِنْ قَلَقٍ وَتَوَتُّرٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَضْحَكَ وَيَسْخَرَ وَيُثَرْثِرَ، لَكِنَّ مُحَاوَلَتَهُ كَانَتْ تَدْعُو إِلَى الرِّثَاءِ؛ فَقَدْ أَبَانَتْ عَنْ هُمُومِهِ وَاضْطِرَابِهِ ..

قَالَتْ زَوْجُهُ وَهِيَ تَرَاهُ يَزْرَعُ الْمَكَانَ جِيئَةً وَذَهَابًا:

- (فِيمَ تُفَكِّرُ؟).

- (الْحَرْبُ .. وَلَا شَيْءَ غَيْرَ الْحَرْبِ يَا امْرَأَةُ ...).

- (أَتَعْتَقِدُ أَنَّ مِنَ الْيَسِيرِ هَزِيمَةَ مُحَمَّدٍ؟؟).

- (وَلِمَ لَا؟).

- (قُرَيْشٌ سَلَّمَتْ لَهُ ..).

قَهْقَهَ سَاخِرًا:

- (وَمَنْ قُرَيْشٌ؟؟).

كَانَ وَاضِحًا أَنَّهُ يُغَالِطُ نَفْسَهُ، وَهِيَ تَعْرِفُ زَوْجَهَا، إِنَّ دَاءَ الْغُرُورِ يَتَحَكَّمُ فِيهِ، ذَلِكَ الدَّاءُ يَجِدُ فِي قَلْبِ مَالِكٍ مَرْتَعًا خِصْبًا؛ أَلَيْسَ شَابًّا قَوِيًّا، وَفَارِسًا شُجَاعًا، وَسَيِّدًا مُطَاعًا؟؟

وَكَانَتْ زَوْجُهُ قَدْ عَلِمَتْ أَنَّ شَيْخَ هَوَازِنَ الطَّاعِنَ فِي السِّنِّ «دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ»، الْمَعْرُوفَ بِحِكْمَتِهِ وَسَدَادِ رَأْيِهِ، وَمَاضِيهِ الْخَافِلِ بِالْأَمْجَادِ، كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ دُرَيْدًا هَذَا لَا يَمِيلُ إِلَى الْحَرْبِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ خَافِتٍ:

- (وَمَا رَأْيُ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ؟).

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ خُفُوتِ صَوْتِهَا، وَتَأَدُّبِهَا فِي الْحَدِيثِ، فَقَدِ اشْتَعَلَ مَالِكٌ ثَوْرَةً، وَاحْتَقَنَ وَجْهُهُ بِالْغَضَبِ، وَهَتَفَ:

- (لَا تَذْكُرِي اسْمَهُ .. لَقَدِ انْتَهَتْ أَيَّامُهُ وَأَيَّامُ أَمْثَالِهِ ..).

وَسَادَ السُّكُونُ بُرْهَةً، ثُمَّ مَضَى فِي حَدِيثِهِ:

- (لَقَدْ أَصْبَحَ هَرِمًا .. كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهِ الْعُمُرُ تَضَاءَلَتْ شَجَاعَتُهُ، وَتَحَوَّلَتْ أَفْكَارُهُ إِلَى آرَاءٍ تُشْبِهُ آرَاءَ الصِّبْيَةِ .. «دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ» عَجِينَةٌ رِخْوَةٌ مِنَ التَّرَدُّدِ وَالْخَوْفِ وَالْجُمُودِ).

وَدَقَّ الْأَرْضَ بِقَدَمِهِ فِي قُوَّةٍ، وَهَتَفَ:

- (لَنْ يَسْتَقِيمَ أَمْرُ قَوْمِنَا إِلَّا إِذَا تَوَلَّى أَمْرَهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ ثَابِتُ الرَّأْيِ وَالْجَنَانِ .. هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ كَيْ نَتَسَنَّمَ مَرَاتِبَ الْمَجْدِ).

قَالَتْ زَوْجُهُ مُطَأْطِئَةً رَأْسَهَا:

- (لَكِنَّكَ لَا تُنْكِرُ خِبْرَتَهُ الطَّوِيلَةَ، وَإِخْلَاصَهُ الْمَعْرُوفَ، وَسَدَادَ رَأْيِهِ).

جَذَبَهَا مِنْ كُمِّهَا فِي تَحَدٍّ، وَقَالَ:

- (لِكُلِّ دَوْلَةٍ رِجَالٌ ..).

- (إِنَّكَ تَظْلِمُ الرَّجُلَ).

عَادَ يُقَهْقِهُ.

- (وَكُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْمُغَضَّنِ، وَشَعَرِهِ الْأَشْيَبِ، وَعَيْنَيْهِ الْكَابِيَتَيْنِ؛ تَذَكَّرْتُ الْمَوْتَ .. وَالْقَبْرَ .. وَالْهَيَاكِلَ الْمُبَعْثَرَةَ فَوْقَ الرِّمَالِ ..).

قَالَتْ فِي اسْتِسْلَامٍ: (الْأَمْرُ لَكَ).

رَمَاهَا بِنَظْرَةٍ حَاقِدَةٍ، وَقَالَ بِعَيْنَيْنِ مُحْمَرَّتَيْنِ:

- (إِنَّنِي أَكْرَهُ الْخَوْفَ .. أَكْرَهُ التَّرَدُّدَ .. إِنَّنِي أَكْرَهُكِ أَنْتِ الْأُخْرَى ..).

شَحَبَ وَجْهُهَا، وَتَنَدَّتْ عَيْنَاهَا بِالدُّمُوعِ، وَقَالَتْ فِي أَسًى:

- (أَعْرِفُ ذَلِكَ .. لَكِنْ أَلَمْ تُفَكِّرْ فِي سَبَبٍ يَدْفَعُكَ إِلَى إِشْعَالِ الْحَرْبِ؟).

قَالَ:

- (لَا أُرِيدُ أَنْ أَدِينَ بِالْفَضْلِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَيْفِي ..).

- (وَمَاذَا؟).

- (وَلِأَنِّي أَرْفُضُ أَنْ أَتَلَقَّى هِدَايَةً مِنْ أَحَدٍ .. لَيْسَ هُنَاكَ إِلَهٌ إِلَّا الَّذِي أَخْتَارُهُ لِنَفْسِي ..).

- (مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ تَبْقَى دَائِمًا فَوْقَ الْآلِهَةِ؟).

قَالَ دُونَ اكْتِرَاثٍ:

- (أَجَلْ ..).

وَأَخَذَ يُجَفِّفُ عَرَقَهُ، وَهُوَ يَسْتَطْرِدُ:

- (لَنْ يَدْخُلَ هَوَازِنَ دِينٌ جَدِيدٌ .. وَلَا نَبِيٌّ .. سَتَبْقَى هَوَازِنُ هَوَازِنَ .. شَامِخَةً قَوِيَّةً، تَحُوطُهَا السُّيُوفُ، وَتَحْمِيهَا الْأَذْرُعُ الْقَوِيَّةُ .. وَلَنْ تَسْتَطِيعَ مَلَائِكَةُ مُحَمَّدٍ أَنْ يَدْخُلُوهَا).

وَخَطَا نَحْوَهَا خُطُواتٍ قَلِيلَةً، ثُمَّ رَفَعَ ذَقَنَهَا، وَنَظَرَ إِلَيْهَا بِاسْتِغْرَابٍ قَائِلًا:

- (وَمَا دَخْلُ النِّسَاءِ فِي أَمْرٍ كَهَذَا؟).

- (لِأَنِّي أُرِيدُكَ أَنْ تَبْقَى ..).

- (هَذَا شَأْنِي ..).

- (إِنَّكَ لَتَا .. وَلِهَوَازِنَ).

- (كُلُّ شَيْءٍ لِي .. هَوَازِنُ بِمَالِهَا وَرِجَالِهَا وَأَنْعَامِهَا .. وَأَنَا سَيِّدُهَا).

جَمَعَتْ أَمْرَهَا، وَقَالَتْ فِي شَجَاعَةٍ:

(أَنْتَ بِدُونِ هَوَازِنَ لَا شَيْءَ ..).

قَالَ دَهِشًا:

- (كَيْفَ؟!!).

- (إِنَّ سَيْفًا وَاحِدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْضِعَ الرِّقَابَ، وَهَوَازِنُ -بِرَغْمِ كُلِّ شَيْءٍ- تُحِبُّكُ .. هَذَا الْحُبُّ هُوَ سِرُّ سُلْطَانِكَ وَوُجُودِكَ ..).

- (تُضْحِكُنِي حِكْمَتُكِ .. إِنَّهَا تُذَكِّرُنِي بِهَذَيَانِ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ .. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّنِي سَعِيدٌ بِذَلِكَ الْحُبِّ .. وَهُوَ دَلِيلٌ أَكِيدٌ عَلَى أَنَّنِي قَادِرٌ أَنْ أَشُقَّ طَرِيقِي إِلَى النَّصْرِ وَالْمَجْدِ ..).

- (أَلَا تُفَكِّرُ فِي مَصِيرِ مَنْ يُحِبُّونَكَ؟).

هَدَرَ فِي صَبْرٍ نَافِذٍ:

- (قُلْتُ لَكِ: النَّصْرُ .. وَالْمَجْدُ .. أَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؟!).

وَانْهَمَرَتْ دُمُوعُهَا بِغَزَارَةٍ، ثُمَّ أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى صَدْرِهِ مُتَشَبِّثَةً بِثِيَابِهِ، وَكَانَتْ تَقُولُ:

- (قُلْتَ مُنْذُ قَلِيلٍ: إِنَّكَ تَكْرَهُنِي .. وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنَا أُحِبُّكَ .. وَأَتَفَانَى فِي خِدْمَتِكَ وَإِسْعَادِكَ .. لَيْتَكَ أَرَقْتَ دَمِي قَبْلَ أَنْ تَتَفَوَّهَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ .. الْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْهَا ..).

انْتَعَشَ قَلْبُهُ، وَتَرَنَّحَتْ أَعْطَافُهُ بِشُعُورٍ مُبْهِجٍ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ فِي تَعَالٍ وَغُرُورٍ، وَقَالَ:

- (كَثِيرَاتٌ أُولَئِكَ اللَّاتِي يَلْثِمْنَ التُّرَابَ الَّذِي أَمْشِي عَلَيْهِ، وَيَحْلُمْنَ بِنَظْرَةِ وُدٍّ وَحَنَانٍ .. كُلُّهُنَّ تَعْرِفْنَ مَنْ هُوَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ .. إِلَّا أَنْتِ، دَائِمًا تُصِرِّينَ عَلَى مُجَادَلَتِي، بَلْ وَالِاعْتِرَاضِ عَلَى تَصَرُّفَاتِي ..).

قَالَتْ مَحْزُونَةً:

- (أَتَعْتَبِرُ كُلَّ مَنْ بَادَلَكَ الرَّأْيَ عَدُوًّا يَسْتَحِقُّ الْكُرْهَ ..؟).

- (بِكُلِّ تَأْكِيدٍ ..).

- (هَذَا مِقْيَاسٌ خَاطِئٌ أَيُّهَا الْحَبِيبُ .. إِنَّنِي لَا أُفَكِّرُ إِلَّا فِي سَلَامَتِكَ، الَّذِينَ يَخْدَعُونَكَ هُمُ الْعَدُوُّ .. الَّذِينَ يَهْتِفُونَ بِاسْمِكَ أَغْلَبُهُمْ مُنَافِقُونَ .. إِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكَ وَيَحْقِدُونَ عَلَيْكَ، وَيَتَعَشَّقُونَ الْيَوْمَ الَّذِي يَرَوْنَكَ فِيهِ قَدْ تَعَرَّيْتَ مِنْ كُلِّ سُلْطَةٍ وَمَجْدٍ وَحُبٍّ .. صَدِّقْنِي ..).

دَفَعَهَا فِي ازْدِرَاءٍ، وَمَضَى خَارِجًا ..

حِينَمَا غَادَرَ الْمَكَانَ لَقِيَهُ أَحَدُ عَبِيدِهِ قَادِمًا عَلَى جَوَادٍ، وَمَا إِنْ تَرَجَّلَ حَتَّى هَتَفَ بِهِ مَالِكٌ قَائِلًا:

- (كَيْفَ وَجَدْتَهَا؟).

قَالَ الْعَبْدُ مُنَكِّسَ الرَّأْسِ:

- (إِنَّهَا تَعْتَذِرُ عَنْ لِقَاءِ مَوْلَايَ اللَّيْلَةَ).

اسْتَشَاطَ مَالِكٌ غَضَبًا، وَصَاحَ فِي وَجْهِ الْعَبْدِ:

- (اغْرُبْ عَنْ وَجْهِي).

كَانَ قَلْبُهُ يَخْفِقُ فِي عُنْفٍ، أَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ تَتَأَبَّى عَلَيْهِ امْرَأَةٌ؟! وَأَيَّةُ امْرَأَةٍ؟ تِلْكَ الْأَرْمَلَةُ الْغَرِيبَةُ الشَّأْنِ «عَاتِكَةُ بْنَةُ مُوَيْهِبٍ» .. مَاتَ أَبُوهَا وَإِخْوَتُهَا فِي غَارَاتٍ لِلثَّأْرِ، وَمَاتَ زَوْجُهَا دُونَ أَنْ تُنْجِبَ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا، وَلَمْ يَبْقَ سِوَى أُمِّهَا الْعَجُوزِ، فَهَجَرَتَا الدِّيَارَ، وَلَاذَتْ إِلَى مَكَانٍ قَصِيٍّ قُرْبَ جَبَلِ حُنَيْنٍ نَصَبَتْ فِيهِ خِيَامًا، وَمَعَهَا بَعْضُ الْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ، وَعَدَدٌ مِنَ الشَّاءِ وَالْإِبِلِ، جِوَارَ عَيْنٍ صَغِيرَةٍ تَفِيضُ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ عَاتِكَةَ امْرَأَةٌ غَرِيبَةُ الشَّأْنِ، مُتَقَلِّبَةُ الْمِزَاجِ، مُثِيرَةٌ، ذَاتُ جَمَالٍ آثِرٍ وَحَدِيثٍ مُؤَرِّقٍ وَعِنَادٍ عَجِيبٍ، لَعَلَّهَا الْإِنْسَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْبَثَ بِعَوَاطِفِ مَالِكٍ، وَيُجَرِّعَهُ الْعَذَابَ وَالْحَيْرَةَ، وَيُلْهِبَ رُوحَهُ بِسِيَاطِ الْحِرْمَانِ .. وَمَا أَقَلَّ مَا كَانَ يَشْعُرُ بِالْحِرْمَانِ فِي حَيَاتِهِ، فَكُلُّ مَا يَطْلُبُهُ فَهُوَ مُجَابٌ .. لَا يَعْرِفُ التَّرَدُّدَ أَوِ الْيَأْسَ، إِرَادَتُهُ أَقْوَى مِنَ الْفَشَلِ وَالرَّهْبَةِ .. لَكِنْ هَا هُوَ أَحَدُ عَبِيدِهِ يَعُودُ، وَيُوَاجِهُهُ بِرَفْضِهَا .. أَهُنَاكَ امْرَأَةٌ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرْفُضَ لِقَاءَ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ؟؟

وَلَمْ يَطُلْ بِهِ التَّفْكِيرُ، فَرَكِبَ جَوَادَهُ وَانْطَلَقَ عَبْرَ الدُّرُوبِ دُونَ أَنْ تَصْحَبَهُ كَوْكَبَةٌ مِنَ الْفُرْسَانِ .. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ فِي ظِلِّ الِاسْتِعْدَادِ الْحَرْبِيِّ الْكَبِيرِ يُمْكِنُهُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي شَيْءٍ غَيْرِ الْحَرْبِ ..

***

حِينَ بَلَغَ خَيْمَتَهَا، قَالَتْ إِحْدَى الْجَوَارِي:

- (إِنَّ مَوْلَاتِي لَا تَسْتَقْبِلُ أَحَدًا الْيَوْمَ ..).

نَحَّاهَا فِي غِلْظَةٍ، وَأَزَاحَ سِتَارًا صَغِيرًا فَوَجَدَهَا مُتَّكِئَةً عَلَى وِسَادَةٍ قَاتِمَةٍ، وَعَيْنَاهَا الْوَاسِعَتَانِ ذَاتُ الرُّمُوشِ الطَّوِيلَةِ، تَرْمُقَانِهِ فِي اسْتِعْلَاءٍ، كَانَ خَدَّاهَا يَتَوَقَّدَانِ احْمِرَارًا، وَسُمْرَةُ وَجْهِهَا الْخَفِيفَةُ تُشْعِرُ جَمَالًا آسِرًا، وَغَدَائِرُهَا السَّوْدَاءُ تَغْمُرُ كَتِفَيْهَا الْمُمْتَلِئَتَيْنِ وَتَتَدَلَّى عَلَى صَدْرِهَا الْمُكْتَنِزِ، كَانَ يَنْوِي أَنْ يَنْقَضَّ عَلَيْهَا رَكْلًا وَضَرْبًا، لَكِنَّ نَظَرَاتِهِ الْغَاضِبَةَ اسْتَحَالَتْ إِلَى رِقَّةٍ وَضَرَاعَةٍ وَاسْتِسْلَامٍ وَهَمْسٍ:

- (طَابَ مَسَاؤُكِ يَا عَاتِكَةُ ..).

قَالَتْ فِي اقْتِضَابٍ: (أَتَدْخُلُ مَسْكَنِي عَنْوَةً؟).

- (إِنَّ سَيِّدَ هَوَازِنَ أَتَى طَائِعًا يَنْشُدُ رِضَاكِ ..).

- (أَجِئْتَ مُحَارِبًا، أَمْ طَالِبَ وُدٍّ .. ؟).

- (بَلْ مُتَعَبِّدًا لِجَمَالِكِ، طَالِبًا الصَّفْحَ ..).

- (فَفِيمَ الْحَدِيثُ عَنْ هَوَازِنَ؟ أَنَا لَا أَعْرِفُ سِوَى مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ ..).

- («مَالِكٌ» خَادِمُكِ الْمُطِيعُ ..).

- (لَكِنِّي لَا أُرِيدُكَ اللَّيْلَةَ).

- (لِمَاذَا يَا عَاتِكَةُ؟!).

لَمْ تَتَحَرَّكْ مِنْ رَقْدَتِهَا، وَقَالَتْ فِي ثِقَةٍ:

- (لِأَنِّي أُرِيدُ الْوَحْدَةَ).

- (إِنَّكِ تُعَذِّبِينَنِي)!

- (هَذَا ضَرُورِيٌّ).

- (وَلِمَاذَا؟!).

- (لَا حَيَاةَ بِلَا عَذَابٍ).

وَخَطَا نَحْوَهَا فِي وَجَلٍ، وَبَدَا الشُّحُوبُ عَلَى وَجْهِ الْفَارِسِ الْعِمْلَاقِ ابْنِ الثَّلَاثِينَ، وَجَلَسَ إِلَى جِوَارِهَا مُتَأَدِّبًا مُرْتَجِفًا، وَتَمْتَمَ:

- (لَا أُطِيقُ الْبُعْدَ عَنْكِ ..).

- (وَأَنَا لَا أَقْبَلُ أَنْ تُطَارِدَنِي كُلَّ مَسَاءٍ).

- (أَنَا أُحِبُّكِ).

- (فَلْتَحْتَرِمْ إِرَادَتِي).

- (لَا أَسْتَطِيعُ).

ابْتَسَمَتْ، ثُمَّ لَمَسَتْ يَدَيْهِ الْمُرْتَجِفَتَيْنِ، وَقَالَتْ:

- (مَاذَا تُرِيدُ؟).

- (أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ مِنْكِ سَيِّدَةَ هَوَازِنَ الْمَرْمُوقَةَ).

- (أَنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَكْرِيمًا لِي؟).

- (لَا شَكَّ).

- (لَكِنِّي أَرْفُضُ).

- (لِمَ؟!).

- (أَكْرَهُ الْقُيُودَ ..).

- (نَتَزَوَّجُ ..).

- (أَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ لِلْمَرَّةِ الْأَلْفِ، أَنَا لَا أَبْغِي الزَّوَاجَ).

أَمْسَكَ بِيَدِهَا اللَّدْنَةِ فِي ضَرَاعَةٍ، وَقَالَ:

- (إِنَّنِي حَائِرٌ .. تَرْفُضِينَ الزَّوَاجَ، وَتَضَنِّينَ عَلَيَّ بِجَمَالِكِ .. أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى قَلْبِكِ .. ؟).

هَزَّتْ كَتِفَيْهَا فِي دَلَالٍ قَائِلَةً:

- (لَا أَعْرِفُ ..).

تَطَلَّعَ إِلَى مَفَاتِنِهَا الصَّارِخَةِ بِالتَّحَدِّي وَالتَّأَبِّي، فَاجْتَاحَتْهُ مَوْجَةٌ مِنَ الضِّيقِ وَالْعَجْزِ، فَضَغَطَ عَلَى يَدِهَا دُونَ وَعْيٍ، فَصَرَخَتْ:

- (سَتُحَطِّمُ يَدِي!).

تَلَعْثَمَ، ثُمَّ سَحَبَ يَدَهُ، وَدَارَ بِنَظَرَاتِهِ الْحَائِرَةِ فِي جَنَبَاتِ الْخَيْمَةِ الْخَافِتَةِ الضَّوْءِ، وَتَمْتَمَ:

- (إِنَّنَا نَكَادُ نَكُونُ مُتَلَاصِقَيْنِ، لَكِنْ أَشْعُرُ بِأَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكِ بُعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. وَهُنَاكَ فِي بَيْتِي تَمْلَئِينَ عَالَمِي، وَرَائِحَتُكِ لَا تُفَارِقُ خَيَاشِيمِي .. أَنْتِ سَاحِرَةٌ ..).

شَبَّكَتْ يَدَيْهَا، ثُمَّ تَمَدَّدَتْ وَوَضَعَتْهُمَا تَحْتَ رَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

- (مَمْلَكَتِي الصَّغِيرَةُ هُنَا أَعْظَمُ مِنْ سُلْطَانِ هَوَازِنَ).

- (أَنْتِ تَرْجَحِينَ الدُّنْيَا بِكَامِلِهَا ..).

- (أَنَا أُحِبُّ الْوَحْدَةَ، وَأَكْرَهُ النَّاسَ ..).

- (وَأَنَا؟!).

لَمْ تُجِبْ عَلَى تَسَاؤُلِهِ، وَاسْتَطْرَدَتْ:

- (أَنَا أَحْتَقِرُ النَّاسَ جَمِيعًا .. أَحْتَقِرُ أَفْكَارَهُمْ .. وَتَقَالِيدَهُمْ .. وَأَكْرَهُ قُوَّتَهُمْ وَضَعْفَهُمْ .. وَغِنَاهُمْ وَفَقْرَهُمْ ..).

ثُمَّ هَبَّتْ مِنْ رَقْدَتِهَا، وَأَخَذَتْ تَدْفَعُهُ بَغْتَةً قَائِلَةً:

- (اخْرُجْ .. اخْرُجْ .. لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى أَحَدًا ..).

***

بَقِيَ عَتِيدًا كَالصَّخْرَةِ، وَحَطَّ عَلَى قَلْبِهِ حُزْنٌ عَمِيقٌ أَسْوَدُ، بَيْنَمَا أَخَذَ يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ وَوَجْهُهَا الشَّرِسُ الْغَاضِبُ الْمُتَوَتِّرُ يَفِيضُ إِثَارَةً، وَيُوَلِّدُ فِي نَفْسِهِ رَغْبَةً مَحْمُومَةً.

قَالَ مُهَدِّدًا:

- (إِنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْفِكَ دَمَكِ بِسَيْفِي هَذَا).

أَخَذَتْ تَضْحَكُ وَتَضْحَكُ، وَالدُّمُوعُ فِي عَيْنَيْهَا، وَجَسَدُهَا كُلُّهُ يَهْتَزُّ مَعَ ضَحِكَاتِهَا، وَقَالَتْ:

- (وَبَعْدُ ..).

- (أَسْتَرِيحُ إِذْ أَنْتَقِمُ لِعَجْزِي وَكِبْرِيَائِي ..).

وَهَمَسَتْ فِي اسْتِهْتَارٍ:

- (يَا طِفْلِيَ الْعَزِيزَ .. إِنَّ دَمِي إِذْ يَسِيلُ إِنَّمَا يَزِيدُكَ حَسْرَةً وَبَأْسًا .. وَلَنْ تَجْنِيَ سِوَى الْحِرْمَانِ .. وَالْحِرْمَانُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَيَكُونُ أَزَلِيًّا طَوِيلًا .. لَا نِهَايَةَ لِعَذَابِهِ ..).

ثُمَّ رَمَقَتْهُ بِعَيْنَيْنِ مُتَمَرِّدَتَيْنِ:

- (لَا تَذْكُرِ الدَّمَ وَالسُّيُوفَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَإِلَّا بَصَقْتُ فِي وَجْهِكَ ..).

أَخْذَلَتْهُ، وَضَايَقَتْهُ كَلِمَاتُهَا الْعَارِيَةُ مِنْ كُلِّ أَدَبٍ، وَتَمْتَمَ:

- (إِنَّ فِيكِ قِحَةً!!).

- (وَلِذَا فَأَنْتَ تُحِبُّنِي؟!).

- (لَمْ أَتَسَامَحْ مَعَ إِنْسَانٍ لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ ..).

- (وَالْقُوَّةُ لَيْسَتْ فِي السَّيْفِ وَالذِّرَاعِ ..).

ثُمَّ هَزَّتْ كَتِفَيْهَا مُسْتَطْرِدَةً:

- (أَنَا لَا أَمْلِكُ قُوَّةً بَدَنِيَّةً، وَلَا سَيْفًا ..).

ثُمَّ رَكَزَتْ نَظَرَاتِهَا فِي وَجْهِهِ الْمُتَوَتِّرِ، وَقَالَتْ:

- (وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنَا أَقْوَى مِنْكَ ..).

قَالَ مَالِكٌ: (هَلْ أَنْتِ مَجْنُونَةٌ؟!).

قَالَتْ: (أَنَا أَكْرَهُ الزَّيْفَ وَالْغُرُورَ وَالنِّفَاقَ، فَكَيْفَ يَأْتِينِي الْجُنُونُ؟!) ..

وَصَفَّقَتْ بِيَدَيْهَا، فَأَتَتِ الْجَارِيَةُ مُهَرْوِلَةً، فَقَالَتْ عَاتِكَةُ وَهِيَ تَعُودُ إِلَى اتِّكَائِهَا عَلَى وِسَادَتِهَا: (كَأْسًا لِسَيِّدِ هَوَازِنَ .. لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ الظَّمَأُ) ..

كَانَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهَا؛ تَبَشُّ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ تَعُودُ فَتَعْبَسُ، وَتُقَرِّبُهُ مِنْهَا ثُمَّ تَصُدُّهُ عَنْهَا! يَشْعُرُ أَحْيَانًا أَنَّهَا حُبُّهُ، وَتُبْدِي الِارْتِيَاحَ لِوُجُودِهِ، وَأَحْيَانًا أُخْرَى يُصَابُ بِالْيَأْسِ وَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا تَكْرَهُهُ، وَتَكْرَهُ التُّرَابَ الَّذِي يَمْشِي عَلَيْهِ، وَفِي حَضْرَتِهَا يَنْتَابُهُ الضَّعْفُ وَالشَّكُّ، وَيَفْقِدُ الثِّقَةَ بِنَفْسِهِ وَبِآرَائِهِ! كَلِمَاتُهَا جَارِحَةٌ، وَآرَاؤُهَا غَرِيبَةٌ، تَرْفُضُ أَنْ تَنْصَاعَ لِرَأْيِهِ، فَيَذُوبُ تَصْمِيمُهُ وَتَتَلَاشَى إِرَادَتُهُ! حَاوَلَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْهَا عَشِيقَةً فَفَشِلَ، أَبْدَى اسْتِعْدَادَهُ لِلزَّوَاجِ فَرَفَضَتْ، إِنَّهَا تَلْهُو بِهِ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالرَّجَاءِ، وَتُحِيلُ حَيَاتَهُ إِلَى قَلَقٍ مُشْتَعِلٍ لَا يَهْدَأُ أُوَارُهُ .. رَشَفَ مِنَ الْكَأْسِ رَشَفَاتٍ، فَسَمِعَهَا تَقُولُ:

- (سَمِعْتُ أَنَّكَ تَحْشُدُ قَبَائِلَ هَوَازِنَ وَنَصْرٍ وَثَقِيفٍ وَجَشْعَمٍ لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ ..).

- (أَجَلْ ..).

قَالَهَا فِي فَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ.

قَالَتْ فِي هُدُوءٍ:

- (أَوَتَنْجَحُ فِيمَا فَشِلَتْ فِيهِ قُرَيْشٌ وَالْيَهُودُ؟؟).

- (لَا يُسَاوِرُنِي أَدْنَى شَكٍّ فِي ذَلِكَ).

- (وَإِذَا هُزِمْتَ ..).

- (لَمْ يَرِدْ هَذَا الِاحْتِمَالُ لِي عَلَى بَالٍ ..).

- (إِذَنْ فَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ مَا الْحَرْبُ ..).

- (الْحَرْبُ شَجَاعَةٌ وَصَبْرٌ وَإِصْرَارٌ ..).

- (قَدْ يَكُونُ الِانْسِحَابُ ضَرْبًا مِنَ الشَّجَاعَةِ).

- (هُرَاءٌ .. الْحَرْبُ كَرٌّ ..).

- (مَنْ لَا يَعْرِفِ الْمُرَاوَغَةَ وَالْكَرَّ وَالْفَرَّ؛ فَهُوَ لَيْسَ بِقَائِدٍ ..).

وَقَبْلَ أَنْ يُعَلِّقَ عَلَى كَلِمَاتِهَا، هَتَفَتْ بِصَوْتٍ جَرِيحٍ حَزِينٍ:

- (أَتَدْرِي لِمَاذَا أَرْفُضُ الْحُبَّ وَالزَّوَاجَ؟).

قَالَ فِي لَهْفَةٍ:

- (لِمَاذَا؟).

- (لِأَنِّي أَخَافُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ثُمَّ أَبْحَثُ فِيهِ عَنْكَ فَلَا أَجِدُكَ).

وَسَالَتْ دُمُوعُهَا وَهِيَ تَسْتَطْرِدُ قَائِلَةً:

- (كُنْتُ أُحِبُّ زَوْجِي حُبًّا لَا مَثِيلَ لَهُ .. أَبْتَسِمُ لِلْفَجْرِ الْوَلِيدِ .. وَأُنْعِشُ قَلْبِي بِنَسِيمِ الْمَاءِ .. وَآكُلُ وَأَشْرَبُ .. وَنَمْرَحُ فِي حُلُمٍ جَمِيلٍ .. آهْ .. وَاقْتَتَلَ الْحَيَّانِ مِنْ أَجْلِ صِبْيَةٍ يَلْعَبُونَ فِي الْمَرَاعِي وَسَطَ الْإِبِلِ وَالْأَغْنَامِ .. وَأَخَذَ الرِّجَالُ يَتَسَاقَطُونَ .. قُضِيَ عَلَى كُلِّ عَشِيرَتِي .. وَمَاتَ زَوْجِي فِي النِّهَايَةِ .. أَتَوْا بِهِ جَرِيحًا .. نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْفَتِيِّ وَهُوَ يُوَدِّعُ الْحَيَاةَ .. كُنْتُ أَقْرَأُ فِي عَيْنَيْهِ رَغْبَةً جَامِحَةً لِلتَّشَبُّثِ بِالْحَيَاةِ ..).

ثُمَّ أَخَذَتْ عَاتِكَةُ تُلَوِّحُ بِيَدِهَا فِي ثَوْرَةٍ، وَكَأَنَّهَا تُخَاطِبُ زَوْجَهَا:

- (أَيُّهَا الْأَحْمَقُ .. لِمَ تُرِيقُ دَمَكَ بِلَا مَعْنًى؟! لِمَاذَا تَهْدِمُ عُشَّنَا الْجَمِيلَ مِنْ أَجْلِ صِبْيَةٍ يَلْعَبُونَ .. آهْ .. الشَّرَفُ، الْكَرَامَةُ .. أَيَّةُ كَرَامَةٍ .. وَأَيُّ شَرَفٍ .. فِي صِبْيَةٍ يَخْتَلِفُونَ أَوْ يَتَعَارَكُونَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟!).

كَانَ مَالِكٌ يَسْتَمِعُ إِلَيْهَا وَهُوَ مُطَأْطِئُ الرَّأْسِ .. ثُمَّ أَخَذَتْ تُجَفِّفُ دُمُوعَهَا، وَتَقُولُ:

- (إِنَّنِي أَتَمَنَّى أَنْ يَنْتَصِرَ مُحَمَّدٌ ..).

وَانْتَفَضَ مَالِكٌ كَمَنْ لَدَغَتْهُ حَيَّةٌ .. وَتَصَبَّبَ عَرَقًا وَكَلِمَاتُهَا تَرِنُّ فِي أُذُنِهِ: (يَنْتَصِرُ مُحَمَّدٌ) .. (يَنْتَصِرُ مُحَمَّدٌ) .. (يَنْتَصِرُ مُحَمَّدٌ) ..

وَدُونَ أَنْ يَشْعُرَ وَجَدَ يَدَهُ تُمْسِكُ بِمَقْبِضِ سَيْفِهِ وَتَسُلُّهُ بِسُرْعَةٍ مِنْ غِمْدِهِ ..

أَخَذَتْ يَدُ مَالِكٍ تَسْحَبُ السَّيْفَ مِنْ غِمْدِهِ، وَهُوَ فِي هَيَاجٍ شَدِيدٍ، بَيْنَمَا كَلِمَاتُ عَاتِكَةَ تُدَوِّي فِي أُذُنِهِ: (أَتَمَنَّى أَنْ يَنْتَصِرَ مُحَمَّدٌ) .. (يَنْتَصِرَ مُحَمَّدٌ) .. وَنَظَرَ نَحْوَهَا بِعُيُونٍ أَعْمَاهَا الْغَضَبُ وَالْحَنَقُ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ ثَابِتَةً، تَنْظُرُ إِلَيْهِ بِهُدُوءٍ .. كَانَتِ النَّظْرَةُ الَّتِي فِي عَيْنَيْهَا أَقْوَى مِنْ غَضَبِهِ، وَأَخَذَتْ يَدُهُ تَعُودُ بِالسَّيْفِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى غِمْدِهِ .. وَقَالَ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُكَذِّبَ أُذُنَهُ، أَوْ كَمَنْ يَتَمَنَّى لَوْ تَرَاجَعَتْ عَمَّا قَالَتْهُ:

- (مَاذَا؟ مَاذَا تَقُولِينَ؟) ..

وَلَكِنَّهَا قَالَتْ بِثَبَاتٍ:

- (صَدِّقْنِي .. إِنِّي أَتَمَنَّى الْيَوْمَ الَّذِي أَعْتَنِقُ فِيهِ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ..).

- (أَنْتِ تَهْذِينَ!).

لَمْ تَكْتَرِثْ لِكَلِمَاتِهِ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي حَدِيثِهَا:

- (مَنْ كَانَ يُصَدِّقُ أَنَّ الثَّارَاتِ الْقَدِيمَةَ سَوْفَ تَخْمُدُ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ؟؟ آخَى بَيْنَ الْجَمِيعِ .. بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .. إِنَّهُ لَا يُحَارِبُ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ سُرِقَتْ، وَلَا شَاةٍ ذُبِحَتْ، وَلَا صِبْيَةٍ يَلْعَبُونَ وَيَصْطَرِعُونَ .. وَلَا يَسْفِكُ الدِّمَاءَ مِنْ أَجْلِ بِئْرِ مَاءٍ عَذْبٍ .. الشَّرَفُ وَالْكَرَامَةُ عِنْدَهُ لَهُمَا مَعْنًى آخَرُ يَمْلَأُ الْقَلْبَ، وَيُمَتِّعُ الْفِكْرَ ..).

هَبَّ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ وَاقِفًا، وَهَتَفَ:

- (مَا جِئْتُ لِأَتَلَقَّى عَلَى يَدَيْكِ تَعَالِيمَ مُحَمَّدٍ).

- (أَنَا لَمْ أَدْعُكَ لِلْمَجِيءِ .. وَلَكَ أَنْ تَسْمَعَ كَلِمَاتِي أَوْ تَنْصَرِفَ .. وُجُودُكَ أَوْ عَدَمُهُ لَنْ يَكُونَ ذَا أَثَرٍ عَلَى آرَائِي .. وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْطُوَ خُطُوَاتٍ قَلِيلَةً، وَسَتَجِدُ نَفْسَكَ بَعْدَهَا فِي عُرْضِ الصَّحْرَاءِ .. أَمْ تَرَاكَ فِي حَاجَةٍ لِمَنْ يَأْخُذُ بِيَدِكَ؟؟).

تَحَسَّسَ مَقْبِضَ سَيْفِهِ وَظَلَّ جَامِدًا، ثُمَّ سَمِعَهَا تَقُولُ:

- (لَدَيْنَا لَبَنٌ وَتَمْرٌ).

إِنَّهُ لَا يَمِيلُ إِلَى هَذَا الْخَلِيطِ، وَكُلَّمَا أَتَتْ بِهِ زَوْجَتُهُ؛ تَنَاوَلَ قَلِيلًا مِنْهُ، وَسُرْعَانَ مَا تَعَافُهُ نَفْسُهُ، لَكِنَّهُ هُنَا يَجِدُ لَذَّةً كُبْرَى فِي تَنَاوُلِ أَيِّ طَعَامٍ تُقَدِّمُهُ لَهُ، وَلَمْ تَنْتَظِرْ عَاتِكَةُ رَأْيَهُ، بَلْ صَفَّقَتْ بِيَدَيْهَا، فَهَرْوَلَتِ الْجَارِيَةُ قَادِمَةً، ثُمَّ أَمَرَتْهَا بِأَنْ تُحْضِرَ اللَّبَنَ وَالتَّمْرَ، وَمَا إِنِ انْصَرَفَتِ الْجَارِيَةُ حَتَّى رَأَتْ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ يَجْلِسُ فِي اسْتِسْلَامٍ وَهُدُوءٍ .. وَسَادَتْ فَتْرَةُ صَمْتٍ قَالَ مَالِكٌ بَعْدَهَا:

- (لَا سَبِيلَ سِوَى الْحَرْبِ).

- (بَلْ هُنَاكَ الْبَدِيلُ ..).

- (مَاذَا؟؟).

- (أَنْ نَفْتَحَ قُلُوبَنَا لِكَلِمَاتِ مُحَمَّدٍ).

(كَيْفَ؟؟ يَا لَلْعَارِ!).

- (أَيُّ عَارٍ؟ .. لَنْ تَخْسَرَ شَيْئًا).

- (سَيَقُولُ النَّاسُ: إِنَّ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ جَبَانٌ. وَسَتَقُولُ هَوَازِنُ: إِنَّ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ كَانَ عَلَى حَقٍّ. وَسَتَسْخَرُ مِنِّي زَوْجَتِي .. وَأَنْتِ! مَاذَا سَتَقُولِينَ عَنِّي؟).

قَالَتْ فِي هُدُوءٍ غَرِيبٍ:

- (أَنْتَ تُحَرِّكُكَ نَوَازِعُ تَافِهَةٌ).

- (وَأَنْتِ؟؟ تُرِيدِينَ الْحِفَاظَ عَلَى حَيَاتِي كَيْ نَتَزَوَّجَ .. بِمَاذَا تَصِفِينَ نَوَازِعَكِ هَذِهِ؟؟).

ضَحِكَتْ قَائِلَةً: (أَنْتَ مَغْرُورٌ .. مَنْ قَالَ: إِنَّنِي سَأَتَزَوَّجُكَ؟).

بُهِتَ لِسَمَاعِ كَلِمَاتِهَا، وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ الْحَيْرَةُ، وَغَلَتِ الدِّمَاءُ فِي عُرُوقِهِ، أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، شَعَرَ أَنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ بِهِ، لَشَدَّ مَا أَرْهَقَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ أَعْصَابَهُ وَفِكْرَهُ وَجَسَدَهُ، النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهَا يَقْلِبُ كِيَانَهُ، وَيُرْبِكُ عَقْلَهُ، أَعْطَاهَا ظَهْرَهُ، وَأَسْرَعَ خَارِجًا، وَجَاءَهُ صَوْتُهَا: (إِلَى أَيْنَ؟ ..).

- (إِلَى .. إِلَى ..).

- (اللَّبَنُ وَالتَّمْرُ ..).

- (كُلِيهِ أَنْتِ سَمًّا زُعَافًا).

وَانْطَلَقَ .. لَكِنَّهُ سَمِعَ مِنْ خَلْفِهِ أَنِينًا خَافِتًا سَمَّرَ قَدَمَيْهِ فِي الْأَرْضِ بِضْعَ لَحَظَاتٍ .. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْمَسِيرَ .. وَعَادَ وَتَوَقَّفَ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتٌ .. هُنَاكَ الرِّجَالُ مِنْ ثَقِيفٍ وَهَوَازِنَ وَنَصْرٍ وَجَشْعَمٍ .. إِنَّهَا لَيْلَةٌ حَاسِمَةٌ .. لَوْلَا ذَلِكَ لَبَقِيَ مَعَ عَاتِكَةَ بِرَغْمِ قِحَتِهَا وَكَلِمَاتِهَا الْحَادَّةِ .. إِنَّ الْأَمْرَ جِدُّ خَطِيرٍ ..

تَنَادَتْ هَوَازِنُ لِلْحَرْبِ، وَحَشَدَتْ حُشُودَهَا، وَتَوَافَدَ رِجَالَاتُ ثَقِيفٍ وَقَبَائِلُ جَشْعَمٍ وَنَصْرٍ، وَلَمَعَتِ السُّيُوفُ تَحْتَ وَهْجِ الشَّمْسِ، وَنَزَلَتْ جُمُوعُهُمْ بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ: «أَرْطَاسُ»، وَلَمْ يَغِبْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نَوَايَا هَوَازِنَ وَجُنْدِهَا، فَخَرَجَ الرَّسُولُ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ وَهُمُ الَّذِينَ فَتَحَتْ مَكَّةُ أَبْوَابَهَا لَهُمْ، مُضَافًا إِلَيْهِمْ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَيْنَهُمْ: أَبُو سُفْيَانَ، وَمُعَاوِيَةُ، وَيَزِيدُ، وَوَلَدَاهُ، وَالْعَبَّاسُ، وَغَيْرُهُمْ ..

وَقَفَتْ عَاتِكَةُ فِي مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ تَشْهَدُ الزَّحْفَ الْكَبِيرَ الَّذِي يُغَطِّي مِسَاحَةً شَاسِعَةً مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ، وَرَأَتْ نِسَاءً كَثِيرَاتٍ وَأَطْفَالًا وَإِبِلًا وَشَاءً، وَتَطَلَّعَتْ إِلَى الْحَرَكَةِ الْمَوَّارَةِ الدَّائِبَةِ ..

- (آنَ يَا جَارِيَتِي الْوَفِيَّةَ أَنْ نَتْرُكَ هَذَا الْمَكَانَ).

- (إِلَى أَيْنَ نَرْحَلُ؟).

- (نَذْهَبُ بَعِيدًا إِلَى الْوَرَاءِ، فَمَا بِنَا حَاجَةٌ لِنَلْتَذَّ بِرُؤْيَةِ الدِّمَاءِ ..).

- (لَكِنَّ هَوَازِنَ خَرَجَتْ بِنِسَائِهَا وَرِجَالِهَا وَأَطْفَالِهَا؟).

- (مَعْرَكَةُ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ).

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَى جَارِيَتِهَا قَائِلَةً:

- (أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا الْعَنَاءِ؟؟).

وَلَمَّا لَمْ تُجِبِ الْجَارِيَةُ؛ عَادَتْ عَاتِكَةُ تَقُولُ:

- (يَا طُولَ عَذَابِ النِّسَاءِ ..).

قَالَتِ الْجَارِيَةُ فِي خَجَلٍ:

- (لَكِنَّ الرِّجَالَ يُحَارِبُونَ وَيَمُوتُونَ .. وَهَذَا شَيْءٌ مَرِيرٌ ..).

وَقَوَّضَتْ عَاتِكَةُ خِيَامَهَا، وَحَمَلَ الْخَدَمُ وَالْعَبِيدُ مَتَاعَهَا، وَسَاقُوا إِبِلَهَا، وَرَكِبَتْ هِيَ وَأُمُّهَا الْعَجُوزُ الْهَوْدَجَ الْعَالِيَ، وَأَزْمَعُوا الْمَسِيرَ إِلَى الْوَرَاءِ بَعِيدًا عَنِ الْمَعْرَكَةِ ..

***

وَخَرَجَ الْعَجُوزُ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ مَعَ الْخَارِجِينَ، وَحِينَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمُقَامُ، جَلَسَ يَلْهَثُ وَيَسْتَمِعُ لِمَا يَجْرِي بِاهْتِمَامٍ، وَتَمْتَمَ:

- (بِأَيِّ وَادٍ أَنْتُمْ؟).

قَالَ مَالِكٌ: (نَحْنُ فِي «أَرْطَاسَ»).

- (نِعْمَ مَجَالًا لِلْخَيْلِ!).

وَسُرَّ مَالِكٌ لِسَمَاعِهِ ذَلِكَ الْإِطْرَاءَ، إِنَّ الْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ يُعْتَبَرُ أَرْوَعَ مَكَانٍ لِلْمَعْرَكَةِ الْمُقْبِلَةِ، بِشَهَادَةِ حَكِيمِ جَشْعَمٍ «دُرَيْدٍ»، لَكِنَّ «ابْنَ الصِّمَّةِ» لَوَّحَ بِيَدِهِ إِشَارَةً لِلصَّمْتِ، ثُمَّ قَالَ:

- (مَا لِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ، وَنُهَاقَ الْحَمِيرِ، وَبُكَاءَ الصَّغِيرِ، وَثُغَاءَ الشَّاءِ؟).

وَكَانَ مَالِكٌ قَدِ انْصَرَفَ عَنْهُ، فَرَدَّ أَحَدُ الْوَاقِفِينَ قَائِلًا:

- (سَاقَ مَالِكٌ مَعَ النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ).

ضَرَبَ دُرَيْدٌ كَفًّا بِكَفٍّ، وَقَالَ فِي دَهْشَةٍ:

- (مَاذَا؟! وَأَيْنَ «مَالِكٌ»؟).

فَأَسْرَعُوا بِاسْتِدْعَائِهِ، فَقَدِمَ فِي كِبْرِيَاءٍ وَصَلَفٍ دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ .. بَيْنَمَا قَالَ الْعَجُوزُ الْكَلِيلُ الْبَصَرِ «دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ»:

- (يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ .. إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ رَئِيسَ قَوْمِكَ، وَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ؛ فَلِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟! لِمَ خَرَجْتَ بِالْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَمْوَالِ؟!).

قَالَ مَالِكٌ فِي ثِقَةٍ لَا حَدَّ لَهَا:

- (أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ وَرَاءَ كُلِّ رَجُلٍ أَهْلَهُ وَمَالَهُ؛ لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ وَيَسْتَمِيتَ فِي الدِّفَاعِ ..).

وَابْتَسَمَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ فِي سُخْرِيَّةٍ، وَرَفَعَ إِلَيْهِ وَجْهًا مُغَضَّنًا عَمِيقَ الْأَخَادِيدِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ مُرْتَعِشٍ:

- (لَسْتَ مُحَارِبًا بَارِعًا يَا مَالِكُ، أَنْتَ رَاعِي ضَأْنٍ وَاللَّهِ! هَلْ يَرُدُّ الْمُنْهَزِمَ شَيْءٌ؟! إِنَّهَا إِنْ كَانَتْ لَكَ، وَصَمَدْتَ وَتَقَدَّمْتَ؛ فَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلَّا رَجُلٌ بِسَيْفِهِ وَرُمْحِهِ، وَإِنْ دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْكَ؛ فُضِحْتَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ..).

اكْفَهَرَّ وَجْهُ مَالِكٍ، وَاجْتَاحَتْهُ مَوْجَةٌ عَارِمَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقَالَ:

- (لَنْ أَتَزَحْزَحَ عَنْ رَأْيِي، الْعَدُوُّ قَادِمٌ، وَنَحْنُ نُنَاقِشُ أُمُورًا حَسَمْنَاهَا ..).

هَزَّ دُرَيْدٌ رَأْسَهُ الْأَشْيَبَ فِي أَسًى، وَقَالَ:

- (مَاذَا فَعَلَتْ قَبَائِلُ كَعْبٍ وَكِلَابٍ؟).

قَالَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ:

- (لَنْ يَشْهَدَ الْمَعْرَكَةَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ..).

بَدَا الضِّيقُ وَالْعَجَبُ عَلَى وَجْهِ دُرَيْدٍ .. كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ كَعْبًا وَكِلَابًا مِنْ أَمْهَرِ الْمُحَارِبِينَ، وَأَحْسَنِهِمْ تَمَرُّسًا فِي فُنُونِ الْقِتَالِ وَالْخِبْرَةِ، وَلِذَا قَالَ:

- (غَابَ الْحَدُّ وَالْجِدُّ .. لَوْ كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ عَلَاءٍ وَرِفْعَةٍ لَمَا غَابُوا .. آهْ .. وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلَتْ كَعْبٌ وَكِلَابٌ ..).

هَاجَ مَالِكٌ وَمَاجَ، وَأَبْدَى احْتِجَاجَهُ الشَّدِيدَ عَلَى ذَلِكَ التَّصَرُّفِ مِنْ دُرَيْدٍ، وَرَمَاهُ بِالْخَوْفِ وَالْخَرَقِ، مُؤَكِّدًا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الِاعْتِرَاضَاتِ لَيْسَ وَرَاءَهَا سِوَى تَوْهِينِ الْعَزَائِمِ، وَإِثَارَةِ الشُّكُوكِ وَالْمَخَاوِفِ، بَلْ تَمَادَى الظَّنُّ السَّيِّئُ بِمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ، وَاتَّهَمَ الْبَعْضَ بِأَنَّهُمْ حَاقِدُونَ عَلَيْهِ، يَغَارُونَ مِنْهُ وَمِنَ الْمَجْدِ الَّذِي سَيَتَحَقَّقُ عَلَى يَدَيْهِ!

وَكَانَ مَالِكٌ قَدْ أَرْسَلَ عُيُونًا لَهُ؛ كَيْ يَتَسَلَّلُوا إِلَى مَوَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَأْتُوهُ بِالْأَنْبَاءِ عَنِ اسْتِعْدَادَاتِهِمْ وَحُشُودِهِمْ وَخُطَطِهِمْ، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ عَادَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ هَلِعِينَ مُرْتَاعِينَ، قَدْ تَفَرَّقَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، فَقَالَ لَهُمْ مَالِكٌ: (وَيْلَكُمْ! مَا شَأْنُكُمْ؟!).

قَالُوا: (رَأَيْنَا رِجَالًا بِيضًا، عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ، وَاللَّهِ مَا تَمَاسَكْنَا أَنْ أَصَابَنَا مَا تَرَى ..).

فَأَشْبَعَهُمْ سُخْرِيَّةً مُرَّةً، وَنَقْدًا لَاذِعًا، وَعَابَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ التَّخَاذُلَ الْمُشِينَ، وَأَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ لِهَوَازِنَ.

وَلَمْ يَجِدْ دُرَيْدُ مَنَاصًا مِنْ أَنْ يَتْرُكَ الْأَمْرَ لِمَالِكٍ يَتَصَرَّفُ كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقْتَنِعْ مُطْلَقًا بِسَوْقِ الْأَطْفَالِ وَالْأَمْوَالِ خَلْفَ الْمُحَارِبِينَ، وَأَوْصَى بِأَنْ يُوضَعَ النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْأَمْوَالُ فِي أَمَاكِنَ مُمْتَنِعَةٍ، وَأَمَاكِنَ نَائِيَةٍ عَنِ الْمَيْدَانِ؛ حَتَّى تَتَيَسَّرَ لَهُمُ النَّجَاةُ إِذَا دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى هَوَازِنَ وَحُلَفَائِهَا.

فَصَاحَ مَالِكٌ فِي إِصْرَارٍ:

- (وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ! إِنَّكَ يَا دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ قَدْ كَبِرْتَ وَكَبِرَ عَقْلُكَ! وَاللَّهِ لَتُطِيعُنَّنِي يَا مَعْشَرَ هَوَازِنَ، أَوْ لَأَتَّكِئَنَّ عَلَى هَذَا السَّيْفِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي ..).

فَأَذْعَنَ الْحَاضِرُونَ لِرَأْيِهِ ..

وَخَرَجَ مَالِكٌ إِلَى حَيْثُ يَتَجَمَّعُ الشَّبَابُ، وَيَعُدُّونَ الْعُدَّةَ لِلْمَعْرَكَةِ، هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ كَلِمَاتِهِ تَصِلُ إِلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ، فَيَنْفَعِلُونَ بِهَا، إِنَّهُمْ مِثْلُهُ يَضِيقُونَ بِحِكْمَةِ كِبَارِ السِّنِّ وَرَوِيَّتِهِمْ وَتَخَوُّفِهِمْ، وَيُنْكِرُونَ عَلَيْهِمُ التَّرَدُّدَ وَالتَّحَفُّظَ ..

وَقَفَ مَالِكٌ بَيْنَهُمْ قَائِلًا:

- (أَيُّهَا الرِّجَالُ .. أَتَدْرُونَ مَعْنَى انْتِصَارِنَا؟! لَئِنْ تَبَدَّدَتْ قُوَّاتُ مُحَمَّدٍ، وَقَضَيْنَا عَلَى جَيْشِهِ؛ فَسَتَدِينُ لَنَا مَكَّةُ، وَسَتَخْضَعُ الْمَدِينَةُ، وَتَرْكَعُ الْقَبَائِلُ الْمُتَنَاثِرَةُ هُنَا وَهُنَاكَ مُسْتَسْلِمَةً، وَسَتَضِيقُ بُيُوتُنَا وَمَرَابِعُنَا بِالْغَنَائِمِ وَالسَّبَايَا الَّتِي نَحْصُلُ عَلَيْهَا .. سَنُصْبِحُ مُلُوكَ الْعَرَبِ، وَتَسْتَطِيعُ سُيُوفُنَا أَنْ تَجْمَعَ هَذِهِ الْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ كُلَّهَا عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَسَتُصْبِحُ هَوَازِنُ أُغْنِيَةً عَلَى الشِّفَاهِ، وَقَصِيدَةً عَصْمَاءَ يَتَرَنَّمُ بِهَا الشُّعَرَاءُ فِي آفَاقِ الدُّنْيَا ..).

اتَّقَدَتْ حَمَاسَتُهُمْ، وَهَتَفُوا صَاخِبِينَ:

- (نَحْنُ وَرَاءَكَ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ .. نَحْنُ جُنُودُكَ ..).

- (وَاعْلَمُوا أَيُّهَا الرِّجَالُ أَنَّهُ إِذَا حَاقَتِ الْهَزِيمَةُ بِمُحَمَّدٍ فِي الْبِدَايَةِ؛ فَلَسَوْفَ يَفِرُّ أَتْبَاعُهُ، بَلْ سَيَسُوقُونَهُ أَسِيرًا إِلَيْنَا، عِنْدَئِذٍ نَعْبُدُ مَنْ نَشَاءُ، وَنَكْفُرُ بِمَنْ نَشَاءُ، وَتَكُونُ لَنَا جَنَّةٌ مِنْ صُنْعِ سُيُوفِنَا .. وَيَكُونُ لِأَعْدَائِنَا الْجَحِيمُ الْأَبَدِيُّ .. وَالْمَوْتُ وَالدَّمَارُ ..).

وَهَدَرُوا مَرَّةً أُخْرَى:

- (مَعَكَ حَتَّى النَّصْرِ يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ ..).

***

أَطَلَّ الْمَسَاءُ، وَانْطَلَقَ مَالِكٌ صَوْبَ الْفَضَاءِ حَيْثُ يَخِفُّ الزِّحَامُ وَالضَّجِيجُ، أَرَادَ أَنْ يُفَرِّغَ لِنَفْسِهِ بَعْضَ الْوَقْتِ؛ كَيْ يَتَدَبَّرَ أَمْرَهُ، وَيُفَكِّرَ فِيمَا يَأْتِي بِهِ الْغَدُ، هَكَذَا قَالَ لِنَفْسِهِ، لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يُحَاوِلُ إِخْفَاءَهَا حَتَّى مَعَ نَفْسِهِ هِيَ أَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَبْلُغَ مَقَرَّ عَاتِكَةَ .. شَيْءٌ مَا يَجْذِبُهُ إِلَيْهَا دَائِمًا .. تَرَكَ الْجَيْشَ .. وَالرِّجَالَ .. وَالْحَدِيدَ .. وَالشَّاءَ وَالْإِبِلَ .. وَالنِّسَاءَ مِنْ أَجْلِهَا؛ لِيَتَزَوَّدَ بِنَظْرَةٍ، أَوْ يَسْتَمِعَ إِلَى كَلِمَاتِهَا الْحَادَّةِ الَّتِي تُؤْلِمُهُ وَتُثِيرُهُ، وَبِرَغْمِ ذَلِكَ فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى الِالْتِقَاءِ بِهَا .. هَذِهِ الْأُلُوفُ تَدِينُ لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ، وَهُوَ بِدَوْرِهِ يَخْضَعُ لِعَاتِكَةَ .. مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا بِرَغْمِ وَحْدَتِهَا وَضَعْفِهَا أَقْوَى مِنْهُمْ مُجْتَمِعِينَ ..

إِنَّهُ لَا يُصَدِّقُ عَيْنَيْهِ .. هَا هِيَ النَّخْلَاتُ الثَّلَاثُ وَعَلَى بُعْدِ صَغِيرَةِ الْأَكَمَةِ الْخَضْرَاءِ .. لَكِنْ أَيْنَ حَظَائِرُ الشَّاءِ وَالْإِبِلِ؟! أَيْنَ الْخِيَامُ؟! هَرْوَلَ يُجْهِدُ خَطْوَهُ وَبَصَرَهُ .. وَيَتَشَمَّمُ الْآثَارَ .. تِلْكَ بَقَايَا نِيرَانٍ .. وَأَوْتَادٍ مَنْسِيَّةٍ .. وَمَزَاوِدَ .. وَرَوْثِ جِمَالٍ وَشِيَاهٍ .. لَكِنَّ الصَّمْتَ يَضْرِبُ أَطْنَابَهُ .. أَضْحَتْ ..آهْ .. صَدَقَ الشَّاعِرُ:

(أَضْحَتْ خَلَاءً، وَأَضْحَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا ... أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبَدِ)

عَشَّشَ فِي رَأْسِهِ يَأْسٌ وَتَشَاؤُمٌ، شَعَرَ أَنَّهُ قَدِ افْتَقَدَ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ قُوَّتِهِ وَعَزِيمَتِهِ، بَدَا إِنْسَانًا حَزِينًا مُتَوَتِّرًا عَاجِزًا، الْكَارِثَةُ أَنَّهُ يَحِنُّ إِلَى الْبُكَاءِ .. الْوُجُومُ يَخْتَلِطُ بِالظَّلَامِ وَيَلْفَعُ الْوُجُودَ مِنْ حَوْلِهِ .. مَا قِيمَةُ الْحَيَاةِ؟! إِنَّهَا سَمِجَةٌ مَقِيتَةٌ! تَبْتَسِمُ لَكِنَّهَا تَتَّسِمُ بِالْعِنَادِ وَالسُّخْرِيَّةِ وَالتَّحَدِّي .. يَا لَلْمَأْسَاةِ!

وَسَمِعَ نِدَاءً يَشُقُّ الظَّلَامَ:

- (يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ .. يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ .. أَيْنَ أَنْتَ؟!).

كَانَ أَحَدُ رِجَالِ هَوَازِنَ يَبْحَثُ عَنْهُ:

- (يَا مَالِكُ، إِنَّ مُحَمَّدًا وَجَيْشَهُ قَدْ رَابَطُوا عِنْدَ مَدْخَلِ وَادِي تِهَامَةَ، وَيَرَى دُرَيْدٌ أَنْ نُسْرِعَ قَبْلَهُمْ وَنَخْتَبِئَ فِي الشِّعَابِ وَالْمُنْحَدَرَاتِ وَالْكُهُوفِ؛ حَتَّى إِذَا مَا انْطَلَقُوا دَاخِلَ الْوَادِي فَاجَأْنَاهُمْ عِنْدَ الْفَجْرِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ..).

هَزَّ مَالِكٌ رَأْسَهُ قَائِلًا:

- (إِنَّهَا فِكْرَةٌ رَائِعَةٌ .. وَلَنْ يُفْلِتَ الْمُسْلِمُونَ ..).

***

الْفَجْرُ يُوَشِّي التِّلَالَ بِتِيجَانِ فِضِّيَّتِهِ، وَالصَّمْتُ يَنْشُرُ رِدَاءَهُ عَلَى الْوُجُودِ، وَتَقَدَّمَتْ قُوَّاتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَادِي تِهَامَةَ، وَقَالَ قَائِلٌ:

- (لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عِنْ قِلَّةٍ) ..

فَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي جَيْشٍ لَمْ يَجْتَمِعْ بِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ فِيهِ قَبْلُ، وَصَادَفَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ هَوًى فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَلَأَتْ نُفُوسَهُمْ ثِقَةً وَإِعْجَابًا، غَيْرَ أَنَّ رَجُلًا مُؤْمِنًا آخَرَ تَمْتَمَ:

- (لَا تَقُولُوا هَذَا الْقَوْلَ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِكَثْرَتِكُمْ؛ فَالنَّصْرُ مِنَ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، وَلَنْ تُغْنِيَ الْكَثْرَةُ شَيْئًا ..).

وَمَا إِنْ تَوَسَّطَ الْمُسْلِمُونَ الْوَادِيَ، حَتَّى انْقَضَّ الْأَعْدَاءُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ، لَقَدْ سَبَقَ الْعَدُوُّ، وَاتَّخَذَ الْمَوَاقِعَ الْحَصِينَةَ، وَأَحْكَمَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ خُطَّتَهُ، وَانْهَالُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالنِّبَالِ وَالْحِرَابِ، فَأَرْبَكُوا صُفُوفَهُمْ، وَأَثَارُوا الِاضْطِرَابَ فِي نِظَامِهِمْ، فَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ، وَتَخَبَّطَ الْمُسْلِمُونَ، لَكَأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْسًا خَالِدًا، وَيُشْعِرَهُمْ بِأَنَّ الْكَثْرَةَ وَحْدَهَا لَا تُحَقِّقُ نَصْرًا، أَوْ تُحَقِّقُ غُنْمًا، فَانْشَمَرَ الْمُسْلِمُونَ رَاجِعِينَ لَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ ...

وَزَمْجَرَ خَالِدٌ فِي غَضَبٍ وَهُوَ يَرَى أَبْطَالَ الْفَتْحِ يَتَرَاجَعُونَ:

- (مَا الَّذِي جَرَى؟! إِنِّي لَا أُصَدِّقُ عَيْنِي!!).

وَرَدَّ أَبُو سُفْيَانَ سَاخِرًا، وَكَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، مَوْتُورًا لِنَجَاحِ الْمُسْلِمِينَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ وَإِزَالَةِ سُلْطَانِهِ، رَدَّ أَبُو سُفْيَانَ قَائِلًا:

- (لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ ..).

وَقَالَ مُنَافِقٌ آخَرُ:

- (أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ .. لَقَدِ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، وَحَاقَتْ بِهِمُ الْهَزِيمَةُ ..).

إِنَّهَا أَوْقَاتٌ رَهِيبَةٌ حَاسِمَةٌ، فِيهَا تَتَبَدَّى دَخَائِلُ النُّفُوسِ وَأَهْوَاؤُهَا؛ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْأَمْسِ كَذِبًا وَنِفَاقًا تَرْتَسِمُ ابْتِسَامَةُ التَّشَفِّي عَلَى شِفَاهِهِمْ، وَتَغْمُرُ الشَّمَاتَةُ قُلُوبَهُمْ، فَيَبُثُّونَ أَرَاجِيفَهُمْ وَسُمُومَهُمْ بَيْنَ الْجَيْشِ، وَيَحْطِمُونَ مِنْ رُوحِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

وَيُقَهْقِهُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ فِي طَرَبٍ، وَيَهْتِفُ:

- (أَيْنَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ لِيَرَى بِنَفْسِهِ كَيْفَ تُحَطِّمُ سُيُوفُنَا أَسَاطِيرَ الِادِّعَاءِ وَالزَّيْفِ؟؟).

وَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَرَى الْقَبَائِلَ الْمُسْلِمَةَ تَفِرُّ، فَصَاحَ فِي إِيمَانٍ قَوِيٍّ لَا يَتَزَعْزَعُ:

- (إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ ..).

وَهَتَفَ الرَّسُولُ بِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ قَائِلًا:

- (أَيْ عَبَّاسُ .. اهْتِفْ بِأَصْحَابِ السَّمُرَةِ) [أَيْ: بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ].

فَنَادَى الْعَبَّاسُ:

- (يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ .. يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ..).

فَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُحَاوِلُ أَنْ يُوقِفَ بَعِيرَهُ وَيَرُدَّهُ إِلَى الْمَعْرَكَةِ فَلَا يَقْدِرُ، فَيَأْخُذُ سِلَاحَهُ وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخَلِّي سَبِيلَهُ، وَيَؤُمُّ الصَّوْتَ، وَيَنْحَازُ إِلَى الرَّسُولِ، وَأَتَى أَصْحَابُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ مُلَبِّينَ نِدَاءَ النَّبِيِّ، وَهُمْ يَهْتِفُونَ: (لَبَّيْكَ .. لَبَّيْكَ)، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَى الرَّسُولِ مِئَةٌ مِنْهُمْ، اسْتَقْبَلُوا الْأَعْدَاءَ وَقَاتَلُوهُمْ فِي عُنْفٍ وَصَبْرٍ ..

ثُمَّ نَادَى النَّبِيُّ: (يَا لَلْأَنْصَارِ .. يَا لَلْأَنْصَارِ)، وَبَعْدَهَا نَادَى: (يَا لَبَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ)، وَكَانُوا أَقْوِيَاءَ الشَّكِيمَةِ، صُبُرًا عِنْدَ الْحَرْبِ .. فَازْدَادَ احْتِشَادُ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ الرَّسُولِ، وَاسْتَقَامَتْ صُفُوفُهُمْ، وَأَخَذُوا يَكُرُّونَ وَقَدِ انْجَلَى الظَّلَامُ، وَمَلَأَ نُورُ الشَّمْسِ الْكَوْنَ، وَحَمِيَ وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ .. ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ حَصَيَاتٍ، فَرَمَى بِهَا وُجُوهَ الْأَعْدَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: (انْهَزِمُوا ..).

وُوجِهَتْ هَوَازِنُ وَحُلَفَاؤُهَا بِمُقَاوَمَةٍ عَنِيدَةٍ كَالصَّخْرَةِ، كَانَتْ مَوْجَاتُ الْهُجُومِ تَتَكَسَّرُ وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ يَتَرَاجَعُ بِرِجَالِهِ .. لَمْ تَكُنِ السُّيُوفُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَعْمَلُ، كَانَتْ نِدَاءَاتُ الْمُسْلِمِينَ تَشُقُّ الْآفَاقَ:

(اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ..

لِمَنِ النَّصْرُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

وَنَظَرَ مَالِكٌ إِلَى رِفَاقِهِ وَهُمْ يَفِرُّونَ، صَرَخَ فِيهِمْ:

- (قِفُوا أَيُّهَا الْجُبَنَاءُ .. وَاثْبُتُوا ..).

قَالَ رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ وَهُوَ يَهْرُبُ فَوْقَ جَوَادِهِ:

- (إِنَّهُمْ لَا يُهْزَمُونَ .. انْجُ بِنَفْسِكَ يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ ..).

- (أَتَتْرُكُ نِسَاءَكَ وَأَطْفَالَكَ وَأَمْوَالَكَ؟!).

- (نَفْسِي نَفْسِي ..).

دَارَتِ الْأَرْضُ بِمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ .. تَذَكَّرَ نَصَائِحَ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ .. اهْتَاجَتْ فِي نَفْسِهِ مَرَارَةٌ قَاتِلَةٌ، وَسَاوَرَهُ نَدَمٌ مُفْزِعٌ، لِمَاذَا لَمْ يَسْتَمِعْ لِرَأْيِ ذَوِي التَّجْرِبَةِ وَالْخِبْرَةِ؟!

- (لَا .. لَا .. إِنَّنِي عَلَى حَقٍّ .. لَمْ أُخْطِئْ .. إِنَّ دُرَيْدًا وَاهِنُ الْقُوَى، مُضْطَرِبُ الْفِكْرِ)!

وَجَاءَ صَوْتُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِلَى مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ .. وَتَلَاقَى الرَّجُلَانِ بِسَيْفَيْهِمَا .. كَانَ مَالِكٌ يَضْرِبُ فِي حِقْدٍ وَاسْتِمَاتَةٍ وَصَمْتٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُ يَهْتِفُ بِهِ وَهُوَ يُنَازِلُهُ:

- (لِمَاذَا تَسُدُّ الطَّرِيقَ أَمَامَ كَلِمَاتِ اللَّهِ يَا مَالِكُ؟ لِمَاذَا لَا تَتْرُكُ لِقَوْمِكَ حُرِّيَّةَ الِاخْتِيَارِ؟! إِنَّنَا نَدْعُو إِلَى الْأُخُوَّةِ وَالْعَدْلِ وَالْحُبِّ، تَحْتَ لِوَاءِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، خَالِقِ الْإِنْسَانِ، وَبَارِئِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ .. وَأَنْتَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَدْعُو النَّاسَ يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ مَغْرُورٌ يُحَرِّكُكَ الْوَهْمُ، وَتَدْفَعُكَ التُّرَّهَاتُ الْبَالِيَةُ ..).

كَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ أَشَدَّ إِيلَامًا لِنَفْسِ مَالِكٍ مِنْ وَقْعِ السُّيُوفِ .. وَوَجَدَ مَالِكٌ نَفْسَهُ وَحِيدًا .. هَرَبَ جُنُودُهُ .. وَالْمُسْلِمُونَ يُوشِكُونَ أَنْ يُطْبِقُوا عَلَيْهِ .. لَوَى زِمَامَ فَرَسِهِ، وَاتَّجَهَ إِلَى الْخَلْفِ .. مُزْمِعًا الْفِرَارَ .. آهْ .. أَيَتْرُكُ أَهْلَهُ؟! يَا لَلْكَارِثَةِ!! أَيُخَلِّفُهُمْ لِيُصْبِحُوا سَبَايَا وَغَنَائِمَ، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِسَوْقِهِمْ إِلَى الْمَيْدَانِ كَيْ يَبْعَثُوا فِي قُلُوبِ الْمُحَارِبِينَ الشَّجَاعَةَ، وَيَبُثُّوا فِي نُفُوسِهِمُ الثَّبَاتَ وَالْإِصْرَارَ؟! لَكِنْ أَمِنَ الْعَقْلِ وَالْحَصَافَةِ أَنْ يَظَلَّ يُحَارِبُ حَتَّى يَمُوتَ؟! لِمَاذَا لَا يَفِرُّ، وَيَنْجُو بِحَيَاتِهِ حَتَّى يَجِدَ فُرْصَةً أُخْرَى يَثْأَرُ فِيهَا لِكَرَامَتِهِ وَأَهْلِهِ؟! عَشَرَاتُ النَّوَازِعِ تَتَقَاذَفُهُ وَتَمْلَؤُهُ بِالْحَيْرَةِ وَالِارْتِبَاكِ ..

***

لَكِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ يُوَلِّي هَارِبًا.

وَتَنْتَهِي الْمَعْرَكَةُ، وَيَنْتَصِرُ الْمُسْلِمُونَ .. وَتَسْقُطُ هَوَازِنُ .. الْأَسْرَى سِتَّةُ آلَافٍ .. وَالْإِبِلُ الَّتِي غَنِمَهَا الْمُسْلِمُونَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ رَأْسٍ، وَالْغَنَمُ أَرْبَعُونَ أَلْفَ شَاةٍ .. وَالْفِضَّةُ أَرْبَعَةُ آلَافِ أُوقِيَّةٍ ..

هَدَرَ الْأَسْرَى:

- (اللَّعْنَةُ عَلَى مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ! كَشَفَ السِّتْرَ، وَأَغْوَى التُّعَسَاءَ، وَسَاقَ النَّاسَ إِلَى الْهَاوِيَةِ .. ثُمَّ وَلَّى هَارِبًا، تَارِكًا وَرَاءَهُ الْخَيْبَةَ وَالْعَارَ وَسُوءَ الْأُحْدُوثَةِ ..).

وَانْعَكَسَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ عَلَى قِمَمِ الْجِبَالِ وَالتِّلَالِ، فَبَدَتْ فِي صُفْرَةِ الذَّهَبِ الْبَرَّاقِ، وَشَهِدَ جَبَلُ حُنَيْنٍ طِرَازًا جَدِيدًا مِنَ النَّاسِ يَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ لِلَّهِ شُكْرًا ..

***

وَكَانَ مَالِكٌ يُسَابِقُ الرِّيحَ بِجَوَادِهِ الْأَصِيلِ، حَتَّى أَصْبَحَ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ يَقْصِدُ الطَّائِفَ، وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُنْهَزِمِينَ، وَمَعَهُمْ رِجَالَاتُ ثَقِيفٍ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْمَوْتِ، آمِلِينَ أَنْ يَلْتَقِطُوا أَنْفَاسَهُمْ وَيَبْدَؤُوا الْمَعْرَكَةَ بَعْدَ أَنْ تَنْدَمِلَ الْجِرَاحُ وَيَذْهَبَ الرَّوْعُ ...

وَعِنْدَ مُنْحَنَى أَحَدِ الدُّرُوبِ، خَفَّفَ الْجَوَادَ مِنْ سُرْعَتِهِ، وَنَظَرَ مَالِكٌ إِلَى يَمِينِهِ فَرَأَى عَاتِكَةَ تَقِفُ أَمَامَ خَيْمَتِهَا، وَحَوْلَهَا الْخَدَمُ وَالْجَوَارِي .. وَتَوَقَّفَ عَنِ الْمَسِيرِ ..

آهْ .. مَاذَا سَتَقُولُ عَاتِكَةُ؟! لَيْتَ الْأَرْضَ تَنْشَقُّ وَتَبْتَلِعُهُ! لِمَاذَا تَوَقَّفَ؟! أَمَا كَانَ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ يَنْطَلِقَ إِلَى الطَّائِفِ؛ حَتَّى يَنْجُوَ مِنْ كَلِمَاتِهَا الْجَارِحَةِ وَعِتَابِهَا الْأَلِيمِ؟! لَكِنَّ قُوَّةً خَفِيَّةً تَجْذِبُهُ إِلَى خَيْمَتِهَا جَذْبًا، قُوَّةٌ لَا يَسْتَطِيعُ مِنْهَا فَكَاكًا .. بَلْ إِنَّ مَالِكًا يَشْعُرُ أَنَّهُ فِي مَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَى عَاتِكَةَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى .. إِنَّهُ يُرِيدُ صَدْرًا حَنُونًا لَيِّنًا، يُرِيحُ عَلَيْهِ رَأْسَهُ، وَيَبُثُّهُ نَجْوَاهُ وَأَسَاهُ .. إِحْسَاسٌ جَدِيدٌ بِأَنَّهُ أَصْبَحَ كَطِفْلٍ تَائِهٍ .. حَزِينٍ .. مَحْرُومٍ مِنَ الْحُبِّ وَالْحَنَانِ!!

قَالَتْ، وَقَدْ رَأَتْهُ مُطْرِقًا مُعَفَّرًا وَاجِمًا:

- (هَلْ أَتَيْتَ؟).

- (لَيْتَنِي مَا أَتَيْتُ!).

وَشَعَرَ بِرَغْبَةٍ فِي الْبُكَاءِ، لَكِنَّهُ تَمَالَكَ نَفْسَهُ.

قَالَ: (هَيَّا بِنَا إِلَى دَاخِلِ الْخَيْمَةِ ..).

تَرَدَّدَ قَلِيلًا وَنَظَرَ إِلَى بَعِيدٍ صَوْبَ الْمَيْدَانِ الْمُضَرَّجِ بِالدِّمَاءِ .. عَاجَلَتْهُ بِقَوْلِهَا:

- (لَا تَخَفْ .. لَنْ يُطَارِدَكَ أَحَدٌ .. لَنْ يُفَكِّرَ الْمُسْلِمُونَ فِي مُوَاصَلَةِ الزَّحْفِ قَبْلَ عِدَّةِ أَيَّامٍ ..).

شَعَرَ بِالْخَجَلِ، لَكَأَنَّهَا تَقْرَأُ أَفْكَارَهُ، وَحِينَمَا اتَّكَأَتْ عَلَى وِسَادَتِهَا، وَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهَا فِي حَيَاءٍ .. الْعُيُونُ الْقَاهِرَةُ الْوَاسِعَةُ ذَاتُ الرُّمُوشِ الطَّوِيلَةِ .. وَالْوَجْهُ الْأَسْمَرُ الْفَتِيُّ الَّذِي يَفِيضُ إِثَارَةً وَجَمَالًا وَأَسًى ..

- (كُنْتُ وَاثِقَةً أَنَّكَ سَتَأْتِي ..).

- (لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ طَرِيقَكِ .. لَقَدْ هَجَرْتِ الْمَكَانَ فَجْأَةً .. بَحَثْتُ عَنْكِ دُونَ جَدْوَى ..).

- (أَكَانَ لَدَيْكَ وَقْتٌ لِلتَّفْكِيرِ فِي شَيْءٍ غَيْرِ الْحَرْبِ؟).

- (عَاتِكَةُ .. أَنْتِ فِي جَسَدِي وَرُوحِي وَعَقْلِي ..).

- (مَا أَعْجَبَ إِيمَانَكَ!).

- (أَنْتِ الْحَقِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي أُؤْمِنُ بِهَا ..).

ابْتَسَمَتْ وَتَمَطَّتْ، ثُمَّ قَالَتْ:

- (أَتُرِيدُ الصِّدْقَ؟).

- (أَجَلْ يَا عَاتِكَةُ ..).

- (أَنْتَ لَا تُحِبُّ إِلَّا نَفْسَكَ ..).

- (أَنْتِ تَظْلِمِينَنِي ..).

اسْتَدَارَتْ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ: (وَأَنَا أَكْرَهُ النَّذَالَةَ وَالنِّفَاقَ ..).

حَطَّ عَلَى قَلْبِهِ هَمٌّ ثَقِيلٌ، وَقَالَ: (هَلْ هَذَا هُوَ الْعَزَاءُ؟!).

هَدَرَتْ فِي نَبَرَاتٍ قَاسِيَةٍ: (جِئْتَ تَسْتَجْدِي عَطَاءَ امْرَأَةٍ .. وَتَرَكْتَ خَلْفَكَ آلَافَ الضَّحَايَا يَتَعَذَّبُونَ .. مَنِ الْمَسْؤُولُ؟!).

خَفَضَ رَأْسَهُ، وَالْعَذَابُ يَطْحَنُ مَشَاعِرَهُ، وَهَمْهَمَ:

- (أَنَا الْمَسْؤُولُ ..).

- (النِّسَاءُ الْآنَ يَتَعَذَّبْنَ وَيُوَلْوِلْنَ .. وَفِيهِمُ امْرَأَتُكَ ..).

- (أَعْرِفُ ..).

- (ثُمَّ تَأْتِي وَتَتَكَلَّمُ عَنِ الْحُبِّ ..).

نَظَرَ إِلَيْهَا فِي ضَرَاعَةٍ:

- (أُرِيدُ كَأْسًا مِنْ خَمْرٍ .. رَأْسِي يَلْتَهِبُ ..).

- (حَطَّمْتُ الْأَوَانِيَ يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ .. وَلَمْ يَعُدْ لَدَيَّ سِوَى اللَّبَنِ وَالتَّمْرِ ..).

- (لِمَاذَا يَا عَاتِكَةُ؟!).

- (الْخَمْرُ خَدَّاعٌ .. تَصْنَعُ وَهْمًا .. تَنْسِجُ خُيُوطَ سَعَادَةٍ زَائِفَةٍ .. ثُمَّ تَنْقَشِعُ السَّرَابُ .. وَيَتَجَلَّى الْعَنَاءُ بِوَجْهِهِ الْبَشِعِ ..).

وَصَاحَتْ بِصَوْتٍ ثَائِرٍ:

- (كُنْ يَقِظًا يَا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ .. تَعَذَّبْ .. وَلَا تَهْرُبْ .. فَلْتُعَانِ مِنْ سِيَاطِ الضَّمِيرِ .. خُضْ جَحِيمَ الْآلَامِ .. وَاجِهْ تَفَاهَتَكَ وَغُرُورَكَ .. وَمَصِيرَكَ الدَّامِيَ .. الْخَمْرُ طَمَسَ نُمُوَّكَ الرُّوحِيَّ وَالْفِكْرِيَّ .. تَخْدَعُكَ .. الْمُعَانَاةُ الْأَلِيمَةُ تَخْلُقُ مِنْكَ إِنْسَانًا جَدِيدًا ..).

انْقَذَفَ نَحْوَهَا، حَاوَلَ أَنْ يُطَوِّقَهَا بِذِرَاعَيْهِ، بَيْنَمَا دُمُوعُهُ تَنْهَمِرُ وَنَحِيبُهُ يَعْلُو ..أَسْرَعَتْ وَدَفَعَتْهُ فِي لُطْفٍ، وَقَالَتْ:

- (لَمْ تَعُدْ طِفْلًا .. كُنْتَ بِالْأَمْسِ سَيِّدَ قَوْمِكَ ..).

- (إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيكِ يَشْتَعِلُ ..).

- (دَعْ ذَلِكَ .. فَلَسْتُ لَكَ ..).

هَتَفَ فِي رُعْبٍ: (لِمَاذَا؟!).

- (أَنَا أَبْحَثُ عَنْ إِنْسَانٍ ..).

- (وَأَنَا؟!).

- (لَمْ تَتَخَطَّ مَرْحَلَةَ الطُّفُولَةِ بَعْدُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ لِحْيَتِكَ وَشَارِبِكَ الْكَثِّ وَجَسَدِكَ الْقَوِيِّ ..).

- (لَكِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ الْحَيَاةَ بِدُونِكِ ..).

- (بَلْ تَسْتَطِيعُ .. أَلَمْ أَقُلْ: إِنَّكَ لَمْ تَزَلْ طِفْلًا؟!).

قَالَ فِي بَأْسٍ: (أَهُنَاكَ رَجُلٌ غَيْرِي، أَنْتِ مَعَهُ عَلَى مَوْعِدٍ؟!).

قَالَتْ: (بَلْ رِجَالٌ كَثِيرُونَ).

- (كَيْفَ؟!).

- (لَقَدْ قَرَّرْتُ أَنْ أَعْتَنِقَ الْإِسْلَامَ ..).

- (أَنْتِ يَا عَاتِكَةُ؟!!).

- (أَجَلْ .. وَلِهَذَا فَإِنَّ حَاجِزًا ضَخْمًا يَقِفُ بَيْنَنَا، مِنَ الصَّعْبِ اجْتِيَازُهُ ..).

قَالَ فِي تَوَتُّرٍ: (مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونِي لِي إِذَا ...).

قَاطَعَتْهُ وَهِيَ تُقَهْقِهُ سَاخِرَةً: (تُفَكِّرُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَجْلِي .. إِنَّهُ إِيمَانٌ حَقِيرٌ!!).

- (صَدِّقِينِي يَا عَاتِكَةُ .. أَنْتِ اللُّغْزُ الْوَحِيدُ الَّذِي اسْتَعْصَى عَلَيَّ فَهْمُهُ ..).

قَالَتْ وَهِيَ تَرْشُقُهُ بِنَظَرَاتِهَا الْفَاتِنَةِ الْحَزِينَةِ: (إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْهَمَ شَيْئًا؛ فَلْتُلْغِ ذَاتَكَ ..).

- (كَيْفَ؟!).

لَمْ تَكْتَرِثْ لِتَسَاؤُلِهِ، وَاسْتَطْرَدَتْ قَائِلَةً: (لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ؛ لَتَبَدَّتْ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ وَاضِحَةً جَلِيَّةً .. وَلَعَرَفْتَ اللَّهَ ..).

قَالَ فِي ذُهُولٍ: (اللَّهُ؟! إِنَّنِي أَعْرِفُهُ مِنْ قَدِيمٍ ..).

- (كُنْتَ تُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَصْنَعُ آلِهَتَكَ .. الْآلِهَةُ لَا تُصْنَعُ .. هُنَاكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا مَثِيلَ لَهُ ..).

هَبَّ وَاقِفًا، وَقَدِ اشْتَعَلَ غَضَبًا: (لَنْ أُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَرَبِّهِ!).

قَالَتْ دُونَ أَنْ يُزَاوِلَهَا هُدُوؤُهَا: (إِنَّ حَصَاةً وَاحِدَةً لَا تُوقِفُ تَدَفُّقَ السَّيْلِ ..).

وَشَرَدَتْ إِلَى بَعِيدٍ، وَهِيَ تَقُولُ: (وَقَدْ يُدَمِّرُ السَّيْلُ بَعْضَ الْكَائِنَاتِ .. لَكِنَّهُ يَرْوِي ظَمَأَ الْأَرْضِ الْمُحْتَرِقَةِ .. وَيُشِيعُ فِيهَا الْحَيَاةَ .. فَتَخْضَرُّ الرَّوَابِي .. وَتَتَدَلَّى الْعَنَاقِيدُ .. وَتَضْحَكُ الزُّهُورُ .. وَتُغَرِّدُ الطُّيُورُ فَوْقَ الْأَغْصَانِ .. وَتَتَحَوَّلُ الدُّنْيَا إِلَى مَوْسِمٍ لِلْأَفْرَاحِ .. آهْ، مَا أَشَدَّ شَوْقِي إِلَى هَاتِيكَ الْأَفْرَاحِ!!).

دَخَلَتِ الْجَارِيَةُ فِي خَوْفٍ، وَقَالَتْ مُتَلَعْثِمَةً: (إِنَّ غُبَارًا كَثِيفًا يَسُدُّ الْأُفُقَ ..).

لَمْ يَتَوَانَ مَالِكٌ لَحْظَةً، بَلِ اخْتَطَفَ سَيْفَهُ، وَجَرَى خَارِجَ الْخَيْمَةِ، وَامْتَطَى جَوَادَهُ، وَانْطَلَقَ مِنْ جَدِيدٍ يُسَابِقُ الرِّيَاحَ ..

وَقَالَتْ عَاتِكَةُ فِي وُجُومٍ: (يَا لَلْمِسْكِينِ! لَقَدِ انْطَلَقَ دُونَ تَحِيَّةٍ أَوْ كَلِمَةِ وَدَاعٍ .. فِي لَحَظَاتِ الْخَطَرِ نَسِيَ الْحُبَّ .. نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النَّجَاةَ بِنَفْسِهِ .. لَا تَخَافِي يَا فَتَاتِي، لَا بُدَّ أَنَّ حَشْدًا مِنَ الْمُنْهَزِمِينَ أَوْ فُلُولِ هَوَازِنَ مُتَّجِهُونَ صَوْبَ الطَّائِفِ .. وَنَحْنُ سَنَرْحَلُ غَدًا إِلَى حَيْثُ يَكُونُ مُحَمَّدٌ .. وَهُنَاكَ نَرْمِي الْأَحْزَانَ خَلْفَ ظُهُورِنَا، وَنُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ ..).

***

عَلَى الرَّغْمِ مِنِ اتِّسَاعِ الطَّرِيقِ، وَامْتِدَادِ الصَّحْرَاءِ الشَّاسِعَةِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ ضَائِقَ النَّفَسِ، مُنْهَكَ الرُّوحِ، يَشْعُرُ بِضَيَاعٍ مُحْزِنٍ، لَمْ يَكُنْ مَالِكٌ وَحْدَهُ، فَقَدِ الْتَقَى بِعَدِيدٍ مِنَ الْفُلُولِ الْمُنْهَزِمَةِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَمْضِي شَاحِبًا مُطْرِقًا تَعِبًا .. بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْجِرَاحِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتِي أَصَابَتِ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ .. وَمَالِكٌ يُفَكِّرُ فِي زَوْجِهِ وَأَهْلِهِ .. هِيَ الْآنَ إِحْدَى السَّبَايَا .. فَقَدَتْ حُرِّيَّتَهَا وَكَرَامَتَهَا، إِنَّ مَنْ يَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهَا الْخَدَمُ وَالْحَشَمُ أَصْبَحَتِ الْآنَ مُجَرَّدَ أَمَةٍ تُبَاعُ وَتُشْتَرَى ... أَصْبَحَتْ مِلْكًا لِغَيْرِهِ مِنَ الرِّجَالِ .. زَوْجَةُ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ أَصْبَحَتْ إِحْدَى السَّبَايَا!! أَيَّةُ كَارِثَةٍ أَبْشَعُ وَأَقْسَى مِنْ ذَلِكَ؟! لَا يَهُمُّ إِنْ كَانَ يُحِبُّهَا أَوْ يَكْرَهُهَا .. الْمُهِمُّ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ .. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْمُرَّةُ تَصْفَعُهُ بِشِدَّةٍ .. وَالرِّجَالُ الْهَارِبُونَ الْمُلْتَفُّونَ حَوْلَهُ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ .. لَقَدْ خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ .. أَمَا كَانَ مِنَ الْأَرْوَحِ لَهُ أَنْ يَمُوتَ؛ حَتَّى لَا يَتَعَذَّبَ وَهُوَ يَشْهَدُ مَصْرَعَ كَرَامَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَآمَالِهِ؟! لَكِنْ لَا .. يَجِبُ أَنْ يَعِيشَ .. وَيَسْتَعِدَّ لِيَوْمٍ آخَرَ؛ فَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَيَوْمَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، عِنْدَئِذٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْأَرَ لِأَحْزَانِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الرَّهِيبَةِ، وَيَتَقَدَّمَ فِي إِبَاءٍ وَشَمَمٍ، وَيَنْتَزِعَ زَوْجَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ انْتِزَاعًا مِنْ أَيْدِي الَّذِينَ سَبَوْهُمْ، ثُمَّ يَسْفِكَ الدِّمَاءَ وَيَشْفِيَ غَيْظَهُ بِأَعْنَفِ انْتِقَامٍ عَرَفَتْهُ الْعَرَبُ .. هُوَ فِي طَرِيقِهِ الْآنَ إِلَى الطَّائِفِ، وَالطَّائِفُ قَدْ أَصَابَ رِجَالَهَا مِنْ ثَقِيفٍ قَدْرٌ كَبِيرٌ مِنَ الْهَزِيمَةِ، فَهِيَ لَا تَفْتَقِرُ إِلَى الْحِقْدِ وَالْإِصْرَارِ الْعَنِيدِ كَيْ تَثْأَرَ هِيَ الْأُخْرَى لِشَرَفِهَا، وَالطَّائِفُ قَوِيَّةُ التَّحْصِينِ صَامِدَةُ الْقِلَاعِ شَدِيدَةُ الْمَرَاسِي ..

وَجَلَسَتِ الْقَافِلَةُ الْمُرْهَقَةُ لِتَسْتَرِيحَ بَعْضَ الْوَقْتِ.

وَمَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ عَلَى أُذُنِ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ هَامِسًا:

- (لَقَدْ مَاتَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ قَتِيلًا ..).

- (الْحَرْبُ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَكِيمِ وَالْمَعْتُوهِ ..).

- (كَانَ بَعِيدَ النَّظَرِ ..).

رَمَقَهُ مَالِكٌ بِنَظْرَةٍ عَاتِيَةٍ، وَقَالَ:

- (هُرَاءٌ .. الْهَزِيمَةُ تَجْعَلُنَا نُفَكِّرُ هَذَا التَّفْكِيرَ، لَوِ انْتَصَرْنَا لَبَدَا لَنَا دُرَيْدٌ أَحْمَقَ الرَّأْيِ ..).

قَالَ الرَّجُلُ: (كَانَ بِالْإِمْكَانِ أَنْ نُسَوِّيَ الْأَمْرَ مَعَ مُحَمَّدٍ دُونَ إِرَاقَةِ دِمَاءٍ ..).

رَدَّ مَالِكٌ: (أَشْرَفُ لَنَا أَنْ نَنْهَزِمَ، مِنْ أَنْ نُسَلِّمَ دُونَ حَرْبٍ ..).

- (كَلَامٌ لَا مَعْنَى لَهُ ..).

ارْبَدَّ وَجْهُ مَالِكٍ، وَصَاحَ:

- (أَتُعَارِضُنِي وَتَسْخَرُ مِنِّي؟!).

- (لِمَ نَخْدَعُ أَنْفُسَنَا؟! تِلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ ..).

- (مَاذَا تَقْصِدُ؟! أَهُوَ التَّقْرِيعُ وَالتَّأْنِيبُ؟! لَا تَنْسَ أَنَّنِي لَمْ أَزَلْ رَئِيسَ الْقَوْمِ وَسَيِّدَكُمْ جَمِيعًا ..).

هَزَّ الرَّجُلُ رَأْسَهُ قَائِلًا: (أَعْرِفُ .. لَكِنَّ النَّكْبَةَ عَامَّةٌ، وَلَنَا الْحَقُّ فِي الْمُشَارَكَةِ بِالرَّأْيِ ..).

- (لَا مَجَالَ لِلرَّأْيِ .. وَلَا شَيْءَ سِوَى الْحَرْبِ ..).

- (مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنَا لَمْ نَتَعَلَّمْ مِنَ النَّكْبَةِ الْكُبْرَى .. وَأَنَّنَا نَخْرُجُ مِنْ حُفْرَةٍ لِنَسْقُطَ فِي حُفْرَةٍ أُخْرَى!).

رَفَعَ إِلَيْهِ مَالِكٌ وَجْهًا مُتَحَدِّيًا، وَهَتَفَ: (مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ؟! أَفْصِحْ ..).

وَقَفَ الرَّجُلُ وَقَالَ بِلَهْجَةٍ وَاثِقَةٍ: (نَذْهَبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَنُبْدِي النَّدَمَ، وَنَعْتَنِقُ دِينَهُ، وَنَطْلُبُ مِنْهُ الصَّفْحَ وَإِعَادَةَ السَّبَايَا ..).

صَرَخَ مَالِكٌ فِي ثَوْرَةٍ: (انْحِطَاطٌ .. !!).

- (بَلْ غَايَةُ السُّمُوِّ ..).

قَهْقَهَ مَالِكٌ: (نَدَمٌ .. وَاسْتِسْلَامٌ .. وَضَرَاعَةٌ .. وَتُسَمِّيهِ سُمُوًّا؟!).

- قَالَ الرَّجُلُ: (مُحَمَّدٌ نَبِيٌّ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَلِمَاتُهُ أَصْدَقُ بُرْهَانٍ .. إِنَّنِي حِينَمَا أُفَكِّرُ فِي دَعْوَتِهِ وَسُلُوكِهِ وَصُمُودِهِ؛ أَعْجَبُ وَيَشْتَدُّ بِيَ الْعَجَبُ .. لِمَاذَا تُحَارِبُهُ؟! .. وَحِينَمَا أُفَكِّرُ فِي امْتِدَادِ سُلْطَانِهِ، وَسَيْطَرَتِهِ عَلَى الْعَرَبِ؛

أَضْحَكُ عَلَى تَصَرُّفَاتِنَا .. إِذْ كَيْفَ نَهْزِمُ رَجُلًا هَذَا شَأْنُهُ؟! كُلَّمَا قَلَّبْتُ الْأَمْرَ وَجَدْتُ أَنَّنَا نَتَخَبَّطُ، وَنَفْعَلُ كَمَا تَفْعَلُ النَّعَامَةُ ..).

قَالَ مَالِكٌ وَهُوَ مُمْسِكٌ بِقَبْضَةِ سَيْفِهِ، وَصَدْرُهُ يَعْلُو وَيَهْبِطُ: (انْصَرِفْ عَنِّي .. كُنْتُ سَعِيدًا بِلَا نَبِيٍّ .. وَيُمْكِنُنِي الْآنَ أَنْ أَحْيَا بِلَا نَبِيٍّ ..).

قَالَ الرَّجُلُ مُشِيرًا إِلَى مَنْ حَوْلَهُ: (وَنَحْنُ؟! هَؤُلَاءِ النَّاسُ ..).

- (لَوْ سَمِعُوا مَا تَقُولُ؛ لَبَصَقُوا عَلَى وَجْهِكَ ..).

احْتَقَنَ وَجْهُ الرَّجُلِ، وَقَالَ: (أَغْلَبُهُمْ يُفَكِّرُونَ فِيمَا أُفَكِّرُ فِيهِ ..).

نَادَى مَالِكٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي الْجُمُوعِ الَّتِي قَدْ عَسْكَرَتْ فِي الْمَنْطِقَةِ: (لَقَدْ أَزْمَعْنَا مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ إِلَى الطَّائِفِ .. هَيَّا بِنَا .. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّفَ فَلْيَذْهَبْ إِلَى الْجَحِيمِ ..).

وَتَحَرَّكَتِ الْقَافِلَةُ جَمِيعُهَا صَوْبَ الطَّائِفِ .. كَانُوا مُرْهَقِينَ مُنْهَزِمِينَ، وَمُضْطَرِبِي الْفِكْرِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَحْسِمُوا أَمْرًا، وَأَشْبَاحُ النِّسْوَةِ وَالْأَطْفَالِ وَالْأَمْوَالِ تَتَرَاقَصُ فِي خَيَالَاتِهِمُ الْمَكْدُودَةِ.

***

وَشَدَّتْ عَاتِكَةُ الرِّحَالَ إِلَى حَيْثُ يُوجَدُ الرَّسُولُ، تُرَافِقُهَا أُمُّهَا وَمَنْ فِي خِدْمَتِهَا مِنَ الْعَبِيدِ وَالْجَوَارِي .. وَرَكِبَتْ فِي هَوْدَجٍ مُتَوَاضِعٍ تُرَافِقُهَا جَارِيَتُهَا .. كَانَتْ عَاتِكَةُ مَفْتُوحَةَ الْعَيْنَيْنِ، يَبْدُو فِيهِمَا التَّفْكِيرُ وَالْعَزْمُ، وَبَقِيَتْ صَامِتَةً فَتْرَةً طَوِيلَةً، وَجَارِيَتُهَا مُطْرِقَةٌ لَا تَفْتَحُ هِيَ الْأُخْرَى فَمَهَا بِكَلِمَةٍ، وَالْعَبْدُ الَّذِي يَأْخُذُ بِمِقْوَدِ الْجَمَلِ يُلْقِي بَعْضَ الرَّجَزِ بِصَوْتٍ جَمِيلٍ مَنْغُومٍ يَتَنَاهَى إِلَى أَسْمَاعِهَا نَدِيًّا رَقْرَاقًا ..

تَنَهَّدَتْ عَاتِكَةُ، وَقَالَتْ: (كُنْتُ أَقُولُ دَائِمًا: إِنَّ مُحَمَّدًا عَلَى حَقٍّ).

- (هُوَ ذَاكَ يَا مَوْلَاتِي ..).

أَدْرَكَتْ عَاتِكَةُ أَنَّ جَارِيَتَهَا لَا تَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ مَا تَهْوَى سَيِّدَتُهَا، فَبَدَا عَلَى وَجْهِهَا شَيْءٌ مِنَ الضِّيقِ، وَغَمْغَمَتْ: (أَتُجَامِلِينَنِي؟! أَنَا لَا أُحِبُّ ذَلِكَ ..).

قَالَتِ الْجَارِيَةُ: (لَيْسَ فِي كَلَامِهِ مَا يَعِيبُ ..).

- (وَلِمَ لَمْ تَقُولِي ذَلِكَ قَبْلَ الْآنَ؟).

- (كُنْتُ أَطْوِيهِ فِي قَلْبِي تَأَدُّبًا ..).

- (هَذَا شَيْءٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ .. أَعْرِفُ أَنَّنِي امْتَلَكْتُكِ .. لَكِنَّ هُنَاكَ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَازِعَكِ فِيهِ أَحَدٌ ..).

- (مَا هُوَ يَا مَوْلَاتِي؟!).

- (مُعْتَقَدَاتُكِ ..).

- (أَجَلْ ..).

- (وَاللَّهُ يُحَاسِبُكِ عَلَيْهَا .. إِنَّهَا شَيْءٌ فِي الْقَلْبِ ..).

تَجَرَّأَتِ الْجَارِيَةُ وَقَالَتْ: (لِمَاذَا لَمْ تُسْرِعِي بِالذَّهَابِ إِلَى مُحَمَّدٍ مُنْذُ الْبِدَايَةِ يَا سَيِّدَتِي؟!).

ابْتَسَمَتْ عَاتِكَةُ: (سُؤَالٌ وَجِيهٌ .. أَتُرِيدِينَ الْحَقَّ؟).

- (أَجَلْ ..).

- (أَنَا نَفْسِي أَعْجَبُ لِذَلِكَ .. كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَكِنِّي كُنْتُ مُتَقَاعِسَةً، هَذَا شَيْءٌ غَرِيبٌ .. النَّكَبَاتُ وَالْأَحْزَانُ عَلَّمَتْنِي أَلَّا أَخَافَ أَوْ أُنَافِقَ .. إِنَّنِي أُلْقِي بِكَلِمَاتِي دُونَ أَنْ أَهَابَ أَحَدًا .. كَيْفَ تَقَاعَسْتُ وَتَرَدَّدْتُ؟ رُبَّمَا لِأَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى الْمَأْلُوفِ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ، وَإِلَى قَدْرٍ خَارِقٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ ..).

أَخَذَتْ عَاتِكَةُ تُعَبِّرُ عَمَّا يَجِيشُ فِي صَدْرِهَا مِنْ مَشَاعِرَ تَفِيضُ بِالْإِيمَانِ وَالنُّورِ .. وَتَجَرَّأَتْ جَارِيَتُهَا وَقَالَتْ -وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهَا بِالسَّعَادَةِ-: (وَكَيْفَ هِيَ جَنَّةُ رَبِّ مُحَمَّدٍ يَا مَوْلَاتِي؟ .. وَهَلْ سَأَكُونُ جَارِيَةً لَكِ هُنَاكَ؟).

ضَحِكَتْ عَاتِكَةُ، وَقَالَتْ: (الْجَنَّةُ لَيْسَ فِيهَا سَادَةٌ وَعَبِيدٌ .. الْجَمِيعُ سَادَةٌ .. لَا شَكَّ أَنَّ الْجَزَاءَ يَتَفَاوَتُ كَمَا تَتَفَاوَتُ مَنَازِلُنَا فِي التَّقْوَى وَالصَّلَاحِ .. لَكِنَّ الْكُلَّ سَادَةٌ .. أَنْتِ مَثَلًا لَوْ نِلْتِ ثَوَابَ الْجَنَّةِ قَدْ تَكُونِينَ أَفْضَلَ مِنِّي عِنْدَ اللَّهِ، وَهُنَاكَ يَا فَتَاتِي لَا قِيمَةَ لِلْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ، وَلَا أَثَرَ لِلْغِنَى الْفَاحِشِ أَوِ السُّلْطَةِ

الدُّنْيَوِيَّةِ .. وَمُحَمَّدٌ يَقُولُ: «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» .. انْظُرِي .. أَيُّ عَالَمٍ رَائِعٍ يَكُونُ؟! الْكُلُّ سَادَةٌ .. وَقَدْ يَكُونُ لِبَعْضِ الْعَبِيدِ مَنْزِلَةٌ أَرْفَعُ مِنْ مَنْزِلَةِ بَعْضِ السَّادَةِ ..).

شَرَدَتِ الْجَارِيَةُ قَائِلَةً: (إِنَّهُ حُلُمٌ جَمِيلٌ ..).

- (بَلْ إِنَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ حَقِيقَةٌ ..).

أَفَاقَتِ الْجَارِيَةُ إِلَى نَفْسِهَا، وَقَالَتْ فِي تَأَدُّبٍ: (لَكَمْ يُسْعِدُنِي أَنْ أَكُونَ إِلَى جِوَارِكِ فِي الْجَنَّةِ .. إِنَّ وُجُودِي بِالْقُرْبِ مِنْكِ أَمْرٌ سَيُسْعِدُنِي كَثِيرًا .. وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّنِي سَأَشْعُرُ بِأَسَفٍ بَالِغٍ إِذَا مَا ابْتَعَدْتُ عَنْكِ فِي الْجَنَّةِ ..).

قَالَتِ الْجَارِيَةُ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ، وَعَاتِكَةُ تَرْمُقُهَا فِي احْتِرَامٍ وَوُدٍّ، وَقَالَتْ: (هُنَاكَ يَا فَتَاتِي لَا وُجُودَ لِلْحِرْمَانِ أَوِ الْأَسَفِ .. هُنَاكَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ .. وَالْحُبُّ .. وَتَحْقِيقُ كُلِّ الْآمَالِ .. إِنَّكِ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تُحَقِّقِي كُلَّ مَا يَخْطُرُ لَكِ عَلَى بَالٍ .. وَفِي الْجَنَّةِ يَا فَتَاتِي تَنْعَدِمُ الْأَحْقَادُ .. لَنْ تَقَعَ عَيْنَاكِ عَلَى وَجْهٍ كَالِحٍ مُتَوَتِّرٍ .. أَوْ عُيُونٍ دَامِعَةٍ .. أَوِ ابْتِسَامَاتٍ ذَلِيلَةٍ .. وَلَنْ تُلَوِّثَهَا الدِّمَاءُ وَالْأَحْزَانُ وَالْخَوْفُ ..).

أَشْرَقَ وَجْهُ الْجَارِيَةِ بِالسَّعَادَةِ، وَرَفَعَتْ عَيْنَيْهَا الْمُخَضَّلَتَيْنِ وَهِيَ تَهْتِفُ: (وَافَرْحَتَاهُ ...).

- (وَفِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ..).

قَالَتِ الْجَارِيَةُ فِي حَمَاسَةٍ بَالِغَةٍ: (كَلِمَاتُكِ هَذِهِ تَجْعَلُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي تَافِهَةً .. وَالْأَيَّامَ تَمُرُّ عَلِيلَةً مُمِلَّةً .. لَكَمْ أَتَشَوَّقُ لِلِقَاءِ اللَّهِ).

- (لَكِنَّ الدُّنْيَا يَا فَتَاتِي هِيَ التَّجْرِبَةُ .. هِيَ الِامْتِحَانُ .. إِنَّ أَمَامَنَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَعْمَالٍ هِيَ الَّتِي تَأْخُذُ بِأَيْدِينَا إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، لَقَدْ أَوْجَدَنَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا .. هَكَذَا أَرَادَ .. فَلِمَ نَتَبَرَّمُ بِهَا؟! وَالْمُؤْمِنُ هُوَ مَنْ يَحْيَا حَيَاتَهُ لِلَّهِ .. عِنْدَئِذٍ .. تُصْبِحُ الدُّنْيَا جِسْرًا إِلَى الْخُلُودِ وَالنَّعِيمِ .. ذَلِكَ هُوَ الْعَدْلُ ..).

وَرَانَ عَلَيْهِمَا الصَّمْتُ مِنْ جَدِيدٍ، الْجَارِيَةُ تَحْلُمُ بِالْجَنَّةِ الْمَوْعُودَةِ؛ حَيْثُ يَكُونُ جَمِيعُ النَّاسِ سَادَةً، لَا عَبِيدَ وَلَا مَظَالِمَ وَلَا حِرْمَانَ، وَعَاتِكَةُ تَحْلُمُ بِلِقَاءِ الرَّسُولِ، وَبِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ يَسُودُهَا الصَّفَاءُ وَالدَّعَةُ وَالسَّلَامُ ..

***

وَدُهِشَتْ عَاتِكَةُ إِذْ سَمِعَتِ الْجَارِيَةَ تَقُولُ: (وَلِمَاذَا لَا يُؤْمِنُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ؟ أَلَا يَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ؟!).

- (إِنَّهُ يُعَانِي أَشَدَّ الْعَذَابِ مُنْذُ الْآنَ ..).

وَتَمَلْمَلَتْ عَاتِكَةُ فِي مَكَانِهَا، وَاسْتَطْرَدَتْ: (إِنَّهُ مِسْكِينٌ ..).

قَالَتِ الْجَارِيَةُ خَافِضَةَ الرَّأْسِ: (لِمَاذَا لَمْ تَتَزَوَّجِيهِ يَا مَوْلَاتِي .. وَهُوَ سَيِّدُ قَوْمِهِ ؟! أَلَا تُحِبِّينَهُ؟!).

- (إِنَّنِي أُحِبُّهُ ..).

قَالَتِ الْجَارِيَةُ فِي دَهْشَةٍ: (عَجِيبٌ .. !!).

- (أَجَلْ .. لَكِنَّهُ حُبٌّ بِعُمْرِ الزُّهُورِ .. أَعْرِفُ أَنَّ مَدَاهُ لَنْ يَطُولَ .. النَّاسُ تَقُولُ: إِنَّ مَالِكًا قَدْ تَزَوَّجَ مِن امْرَأَةٍ بَعْدَ قِصَّةِ حُبٍّ عَنِيفَةٍ وَمُثِيرَةٍ .. آهْ .. مَالِكٌ سَيِّدُ قَوْمِهِ .. وَمَالِكٌ مَلُولٌ .. وَلَا حَدَّ لِرَغَبَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ .. وَالْحُبُّ يَا فَتَاتِي فِي الْبِدَايَةِ دِمَاءٌ تَغْلِي وَتَمُورُ .. ثُمَّ بِضْعَةُ كُؤُوسٍ وَلَيَالِي بَهِيجَةٍ .. وَتَهْدَأُ الْعَوَاطِفُ .. وَيَتَحَوَّلُ الْحُبُّ الْمُلْتَهِبُ إِلَى هُدُوءٍ وَمَوَدَّةٍ .. وَمَالِكٌ عَدُوُّ الْهُدُوءِ وَالْمَلَلِ .. إِنَّهُ يَعْبُدُ التَّوَتُّرَ وَالتَّوَهُّجَ وَالِاشْتِعَالَ .. وَسَوْفَ تَمُرُّ أَيَّامٌ أَوْ شُهُورٌ .. وَبَعْدَهَا سَيَلْهَثُ فِي طَلَبِ الْجَدِيدِ .. سَتَبْحَثُ الْفَرَاشَةُ عَنْ شُعْلَةٍ أُخْرَى تَحُومُ حَوْلَهَا وَإِنِ احْتَرَقَتْ بِلَهَبِهَا .. وَأَنَا امْرَأَةٌ مُجَرِّبَةٌ .. عَانَيْتُ الْكَثِيرَ .. أَبْحَثُ عَنْ إِنْسَانٍ سَوِيٍّ .. نَاضِجٍ .. يَفْهَمُنِي وَأَفْهَمُهُ .. عِنْدَئِذٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَفِظَ كُلٌّ مِنَّا بِالْآخَرِ ..).

كَانَتِ الْجَارِيَةُ تَسْتَمِعُ إِلَيْهَا بِقَلْبٍ مُتَلَاحِقِ الضَّرَبَاتِ، كَلِمَاتُ سَيِّدَتِهَا تَنْصَبُّ فِي أُذُنَيْهَا، وَتَتَسَلَّلُ إِلَى فِكْرِهَا فَتُجْهِدُهُ وَتُثِيرُهُ، وَتَمْتَمَتِ الْجَارِيَةُ: (لَكِنَّكِ قَادِرَةٌ عَلَى تَرْوِيضِهِ وَامْتِلَاكِهِ ..).

هَزَّتْ عَاتِكَةُ كَتِفَيْهَا قَائِلَةً: (لَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي عَبْدًا .. عِنْدَمَا تُبَالِغُ الْمَرْأَةُ فِي الِاحْتِفَاظِ بِزَوْجِهَا، يَكُونُ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِمَزِيدٍ مِنْ نُفُورِهِ وَضِيقِهِ).

وَتَنَهَّدَتْ قَائِلَةً: (وَمَعَ ذَلِكَ، مَنْ يَدْرِي؟ فَلْنَتْرُكْ هَذَا الْأَمْرَ الْآنَ ..).

وَتَوَقَّفَ الْجَمَلُ عَنِ الْمَسِيرِ .. وَصَاحَ الْقَائِدُ: (هُنَا يَنْزِلُ مُحَمَّدٌ ..).

أَطَلَّتْ مِنْ ثَغْرِ الْهَوْدَجِ، كَانَ الضَّوْءُ يَغْمُرُ الْمَكَانَ بَهَاءً وَرَوْعَةً، وَآلَافُ الرِّجَالِ يَرُوحُونَ وَيَجِيئُونَ فِي أَمْنٍ وَثِقَةٍ وَرِضًى ..وَسَرَتْ فِي جَسَدِهَا رِعْشَةٌ قُدُسِيَّةٌ، فَأَغْمَضَتْ عَيْنَهَا، وَشَرِقَتْ، وَتَمْتَمَتْ وَالْأَشْوَاقُ تَغْمُرُ قَلْبَهَا: (هَذَا يَوْمُ الْمُنَى .. هَذَا يَوْمُ اللِّقَاءِ ..).

***

وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ أَنَّ عَاتِكَةَ سَمِعَتْ بِقُدُومِ وَفْدٍ مِنْ هَوَازِنَ يَتَأَلَّفُ مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، جَاؤُوا نِيَابَةً عَنْ قَوْمِهِمْ يُقَدِّمُونَ أَسَفَهُمْ، وَيَعْرِضُونَ إِسْلَامَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمُ السَّبْيَ وَالْأَمْوَالَ تَكَرُّمًا مِنْهُ وَعَطْفًا، وَكَانَ الرَّسُولُ يَعْلَمُ أَنَّ الْغَنَائِمَ مِنْ حَقِّ الْمُحَارِبِينَ، بِهَذَا جَرَى الْعُرْفُ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ أَعْدَاءُ الْمُسْلِمِينَ حِينَ يَسْتَوْلُونَ عَلَى السَّبَايَا وَالْأَمْوَالِ، فَنَظَرَ الرَّسُولُ إِلَى وَفْدِ هَوَازِنَ وَإِلَى جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ لِرِجَالِ هَوَازِنَ: (إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وَإِنَّ أَحَبَّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ؛ فَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ، أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟).

فَقَالَ مُمَثِّلُو هَوَازِنَ: (مَا كُنَّا نَعْدِلُ بِالْأَحْسَابِ شَيْئًا).

إِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا بَيْنَ أَبْنَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَرَأَى وَفْدُ هَوَازِنَ أَنَّ التَّضْحِيَةَ بِالْمَالِ أَمْرٌ هَيِّنٌ، أَمَّا التَّضْحِيَةُ بِالنِّسَاءِ وَالْأَبْنَاءِ فَأَمْرٌ عَسِيرٌ قَاسٍ عَلَى النَّفْسِ.

وَفَكَّرَ الرَّسُولُ بُرْهَةً، ثُمَّ قَالَ: (إِذَا صَلَّيْتُ الْغَدَاةَ، فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْنَا سَبْيَنَا ..).

فَانْصَرَفُوا حَتَّى تَحِينَ الصَّلاةُ ..

وَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: (مَوْلَاتِي .. إِنَّ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ لَيْسَ مَعَ وَفْدِ هَوَازِنَ ..).

- (هُوَ عَنِيدٌ مُكَابِرٌ ..).

- (وَأَيْنَ ذَهَبَ، وَقَدِ انْفَضَّ عَنْهُ النَّاسُ؟!).

- (لَمْ يَزَلْ بِالطَّائِفِ يَنْتَظِرُ احْتِشَادَ ثَقِيفٍ لِيَثْأَرَ لِتُرَّهَاتِهِ!!).

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ الْغَدَاةَ، وَصَلَّى مَعَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ؛ قَامُوا وَفَعَلُوا مِثْلَمَا أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ، فَابْتَسَمَ الرَّسُولُ وَقَالَ: (أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَهُوَ لَكُمْ، وَسَأَسْأَلُ لَكُمُ النَّاسَ).

فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: (مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ) ..

لَكِنَّ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي فَزَارَةَ قَدْ رَفَضَ زُعَمَاؤُهُمْ رَدَّ نَصِيبِهِمْ مِنَ السَّبَايَا .. إِنَّ الْأَمْرَ اخْتِيَارٌ بَحْتٌ، وَمِنْ ثَمَّ رَأَوْا أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِحُقُوقِهِمْ، هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ الْمَعْرَكَةَ قَدْ كَلَّفَتْهُمْ عَدَدًا مِنَ الْقَتْلَى؛ مِمَّا أَثَارَ الْأَلَمَ فِي نُفُوسِهِمْ!

لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ قَائِلًا: (إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ جَاؤُوا مُسْلِمِينَ، وَقَدِ اسْتَأْنَيْتُ بِسَبْيِهِمْ، وَقَدْ خَيَّرْتُهُمْ، فَلَمْ يَعْدِلُوا بِالْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ شَيْئًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يَرُدَّهُ؛ فَسَبِيلُ ذَلِكَ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِحَقِّهِ؛ فَلْيَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَهُ بِكُلِّ فَرِيضَةٍ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا).

وَأَثَارَتِ الْقَضِيَّةُ جَدَلًا صَاخِبًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ الرَّأْيُ السَّائِدُ بَيْنَهُمْ: أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَأْمُرْ بِالرَّدِّ، وَمِنْ ثَمَّ فَالْأَمْرُ مَتْرُوكٌ لِاخْتِيَارِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ نَظَرُوا إِلَى إِسْلَامِ هَوَازِنَ نَظْرَةً مُتَعَمِّقَةً؛ إِنَّ هَؤُلَاءِ إِذْ أَسْلَمُوا، إِنَّمَا يَحُزُّ فِي نُفُوسِهِمْ أَنْ يَبْقَى أَبْنَاؤُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ سَبَايَا، وَإِنَّ الْأُخُوَّةَ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْمُسْلِمِ إِنَّمَا تَكُونُ مُبَرَّأَةً مِنَ الْأَحْقَادِ، وَنَوَازِعِ الْحِقْدِ وَالطَّمَعِ، وَهَكَذَا اسْتَجَابَ الْمُسْلِمُونَ الْمُعَارِضُونَ لِرَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ، وَرَدُّوا السَّبَايَا إِلَى هَوَازِنَ، فَكَانَ يَوْمَ فَرَحٍ وَسُرُورٍ وَاسْتِبْشَارٍ ..

***

وَفِي الْمَسَاءِ، قَالَتِ الْجَارِيَةُ لِمَوْلَاتِهَا عَاتِكَةَ: (لَقَدْ سَأَلَ الرَّسُولُ عَنْ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ، وَأَبْدَى دَهْشَتَهُ لِعَدَمِ مَجِيئِهِ مَعَ الْوَفْدِ .. وَوَعَدَ خَيْرًا إِنْ هُوَ قَدِمَ إِلَيْهِ ..).

تَنَهَّدَتْ عَاتِكَةُ فِي ارْتِيَاحٍ: (لَا أَظُنُّ أَنَّ الرَّسُولَ قَلِقَ لِذَلِكَ، فَهُوَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَجَاحِ دَعْوَتِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُسْلُوبَ الْفَذَّ الَّذِي عَامَلَ بِهِ وَفْدَ هَوَازِنَ، سَوْفَ يَجْعَلُ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَيْهِ تِبَاعًا حَتَّى يَعُمَّ الْإِسْلَامُ بِلَادَ الْعَرَبِ كُلَّهَا .. كُنْتُ أَرَى مَا يَجْرِي وَأَنَا فِي قِمَّةِ السَّعَادَةِ .. رَأَيْتُهُ يَحْنُو عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَيُؤَاخِي بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ، لَا يَخْرُجُ بِهِ الْغَضَبُ، وَلَا يُعَنِّفُ عَلَى مُعْتَرِضٍ .. ابْتِسَامَتُهُ تَنْبُعُ مِنْ قَلْبِهِ، رِفْقُهُ بِهَوَازِنَ أَقْوَى مِنْ رِفْقِهِ بِذَوِيهِ .. كَبِيرٌ .. كَبِيرٌ .. تَتَضَاءَلُ إِلَى جِوَارِهِ كُلُّ عَمَالِقَةِ الزَّيْفِ وَالْعِنَادِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ..

وَاسْتَلْقَتْ عَاتِكَةُ عَلَى فِرَاشِهَا، وَقَدْ حَطَّ الْمَسَاءُ عَلَى الْآكَامِ، وَأَعْتَمَ الْأُفُقُ، إِلَّا مِنْ نُجُومٍ تَتَلَأْلَأُ كَالِابْتِسَامَاتِ النَّابِضَةِ فِي قَلْبِ الْأُفُقِ، وَأَخَذَتْ تَسْتَعِيدُ كُلَّ مَا مَرَّ بِهَا مِنْ أَحْدَاثٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَخَاصَّةً تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْخَالِدَةَ الَّتِي لَا تُنْسَى، حِينَمَا ذَهَبَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ لِتُرَدِّدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَتُعْلِنَ إِيمَانَهَا بِدَعْوَتِهِ .. كَانَ جَسَدُهَا يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الِانْفِعَالِ، وَكَانَتْ تَتَصَبَّبُ عَرَقًا، وَلَا تُرِيدُ أَنْ تُحَوِّلَ عَيْنَيْهَا عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، لَشَدَّ مَا تَمَنَّتْ أَنْ تَبْقَى إِلَى جِوَارِهِ؛ لِتَسْتَمِعَ إِلَى أَحَادِيثِهِ الْعَامِرَةِ بِالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُوَّةِ، وَلِتُشْبِعَ النَّظَرَ وَالتَّطَلُّعَ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ .. وَكَانَتْ تَمْضِي وَهِيَ ذَاهِبَةٌ إِلَيْهِ أَوْ خَارِجَةٌ مِنْ لَدُنْهُ، بَيْنَ جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ

.. وَتَرْقُبُ بِاهْتِمَامٍ كَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ؟ وَكَيْفَ يَتَفَاهَمُونَ؟ .. احْتِشَادٌ مُنَظَّمٌ عَجِيبٌ، تَنْبَثِقُ فِي جَنَبَاتِهِ أَرْوَعُ مَا يَحْلُمُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ فَضَائِلَ وَعَظَمَةٍ وَاحْتِرَامٍ، حَتَّى وَهُمْ يَأْكُلُونَ .. وَيُصَلُّونَ .. وَيَمْرَحُونَ، وَتَمْتَمَتْ وَالنَّوْمُ يُغَالِبُهَا:

- (أَيْ فَتَاتِي .. حِينَما كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى عُيُونِهِمْ .. كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهَا يَنَابِيعُ تَتَدَفَّقُ بِالْحَيَاةِ وَالْأَمَلِ .. فَتَخْضَرُّ الصَّحْرَاءُ، وَتَيْنَعُ الزُّهُورُ .. وَتُصْبِحُ الدُّنْيَا جَنَّةً خَضْرَاءَ .. عَذْرَاءَ .. نَابِضَةً بِالْخُلُودِ .. وَلَنْ أَتْرُكَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ .. سَأَرْحَلُ وَرَاءَهُمْ أَيْنَمَا رَحَلُوا، وَسَأَسْتَنْشِقُ تُرَابَ مَعَارِكِهِمْ كَمَا أَسْتَنْشِقُ الْمِسْكَ وَالْبَخُورَ، وَعِنْدَمَا أَتَزَوَّجُ مَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ قَلْبِي مِنْهُمْ؛ فَسَيَكُونُ ذَلِكَ يَوْمًا سَعِيدًا، لَا يَفُوقُهُ فِي رَوْعَتِهِ غَيْرُ يَوْمِ اللِّقَاءِ مَعَ الْحَبِيبِ الْأَكْبَرِ .. مُحَمَّدٍ ..).

وَرَاحَتْ عَاتِكَةُ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ .. مُوَشَّحًا بِالرُّؤَى الْجَمِيلَةِ .. وَالْأَحْلَامِ الْوَرْدِيَّةِ.

***

هَلْ سَأَلَ عَنِّي مُحَمَّدٌ فِعْلًا؟! وَهَلْ وَعَدَ بِأَنْ يَرُدَّ لِي أَهْلِي وَعَدَدًا مِنَ الْإِبِلِ وَالْمَالِ؟!!

كَانَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ يُرَدِّدُ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الِاعْتِزَازِ وَالْفَخْرِ وَالزَّهْوِ، ثُمَّ ضَحِكَ ضِحْكَةً مُصْطَنَعَةً لَا رُوحَ فِيهَا، وَلَوَى شَفَتَهُ فِي ازْدِرَاءٍ، وَهَزَّ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: (يُرِيدُ مُحَمَّدٌ أَنْ يُغْرِيَنِي .. هَا .. هَا .. هَا .. لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سِوَى السَّيْفِ يَحْكُمُ بَيْنَنَا: فَإِذَا كُنْتُ جَدِيرًا بِأَهْلِي وَمَالِي اسْتَوْلَيْتُ عَلَى حَقِّي عَنْوَةً، وَإِنْ فَشِلْتُ فَإِنَّ الْمَوْتَ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ أَرْوَعُ عَزَاءٍ ..).

وَعَجِبَتِ الطَّائِفُ لِمَوْقِفِ مَالِكٍ وَصَلَابَتِهِ وَإِصْرَارِهِ، وَسَدَّدُوا إِلَى رَئِيسِ هَوَازِنَ نَظَرَاتِ تَقْدِيرٍ وَاحْتِرَامٍ، لَكِنَّ مَالِكًا عَادَ إِلَى مَقَرِّهِ شَارِدَ الْفِكْرِ، مُتَوَتِّرَ الْأَعْصَابِ، لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا قَالَهُ يُعَبِّرُ عَمَّا أَثَارَتْهُ الْأَنْبَاءُ الْجَدِيدَةُ فِي عَقْلِهِ مِنْ خَوَاطِرَ، لَقَدْ شَعَرَ بِارْتِيَاحٍ بَالِغٍ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا سَأَلَ عَنْهُ، وَأَبْدَى اهْتِمَامًا كَبِيرًا نَحْوَهُ، وَأَكْبَرَ مَوْقِفَ مُحَمَّدٍ مِنَ السَّبَايَا الَّذِينَ رَدَّهُمْ إِلَى هَوَازِنَ .. إِنَّ مَالِكًا -عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا حَاقَ بِهِ مِنْ هَزِيمَةٍ- يَجِدُ لَدَى مُحَمَّدٍ اهْتِمَامًا بَالِغًا، وَمُحَمَّدٌ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَنْضَوِيَ مَالِكٌ تَحْتَ لِوَاءِ الْحَقِّ، ذَلِكَ شَيْءٌ أَشْبَعَ غُرُورَهُ، وَأَرْضَى كِبْرِيَاءَهُ .. وَنَظَرَ مَالِكٌ حَوَالَيْهِ، إِنَّ الطَّائِفَ حَصِينَةٌ، وَبِهَا عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ الْأَشِدَّاءِ، لَكِنَّهُ يُدْرِكُ -وَهُوَ لَنْ يَخْدَعَ نَفْسَهُ ثَانِيَةً- أَنَّ أَغْلَبَ النَّاسِ مِنْ ثَقِيفٍ يَسْتَعِدُّونَ لِلْحَرْبِ فِي غَيْرِ حَمَاسَةٍ تُذْكَرُ، الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَى حَقٍّ، دُونَ أَنْ يَجْرُؤُوا عَلَى التَّصْرِيحِ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَنْ تَكُونَ

الطَّائِفُ أَقْوَى وَأَمْنَعَ مِنْ خَيْبَرَ الَّتِي اجْتَاحَهَا مُحَمَّدٌ، وَلَنْ تَكُونَ أَصْمَدَ مِنْ مَكَّةَ وَصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ .. الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا مِرَاءَ فِيهَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَنْ تَحِيقَ بِهِ الْهَزِيمَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنَّ دِينَهُ بِالنِّسْبَةِ لِأَدْيَانِ الْعَرَبِ قِمَّةٌ تَعْلُو كُلَّ الْقِمَمِ، فِيهِ وُضُوحٌ وَاتِّفَاقٌ مَعَ مَنْطِقِ الْعَقْلِ، وَقَبُولٌ لَدَى عَامَّةِ النَّاسِ، وَمُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ هُمُ التَّجْرِبَةُ الْمُعَبِّرَةُ عَنْ نَجَاحِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ .. لَكِنْ أَذْهَبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَأَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَابِعًا مُسْتَسْلِمًا، وَأُرَدِّدُ الشَّهَادَتَيْنِ فِي خُضُوعٍ، وَأَنَا سَيِّدُ هَوَازِنَ وَفَارِسُهَا وَصَاحِبُ الْكَلِمَةِ الْمُطَاعَةِ فِي قِطَاعٍ كَبِيرٍ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ؟! إِنَّهُ لَشَيْءٌ شَاقٌّ عَلَى النَّفْسِ .. آهْ .. لَكِنْ أَشَقُّ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتِي وَأَهْلُ بَيْتِي سَبَايَا يُقَاسُونَ الْعَارَ وَالذُّلَّ وَالضَّيَاعَ!! اللَّهُ وَاحِدٌ .. آهْ .. هَذَا حَقٌّ .. لَكِنَّ النَّاسَ سَوَاسِيَةٌ مُتَسَاوُونَ، هَذَا شَيْءٌ فَظِيعٌ!! هَذِهِ الْمُسَاوَاةُ شَيْءٌ تَمُجُّهُ النَّفْسُ وَتَرْفُضُهُ، وَالْقَانُونُ يُطَبَّقُ عَلَى الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَالسَّيِّدِ وَالْعَبْدِ .. إِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَقَبَّلَ ذَلِكَ، إِنَّ لِلسَّادَةِ دَائِمًا حُقُوقًا غَيْرَ حُقُوقِ الْعَامَّةِ، وَمُعَامَلَةً غَيْرَ مُعَامَلَتِهِمْ .. إِنَّهُمْ سَادَةٌ .. هُنَا نُقْطَةُ الضَّعْفِ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ .. لَا أَدْرِي كَيْفَ وَافَقَ عَلَى ذَلِكَ كِبَارُ الْقَوْمِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَمَاكِنِ .. أَهُوَ الرُّضُوخُ لِلْقُوَّةِ وَعِزَّةِ الْمُنْتَصِرِ؟! لَا .. لَقَدِ انْصَاعَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ دُونَ ضَغْطٍ .. اخْتَارُوا بِأَنْفُسِهِمْ .. وَانْحَنَوْا لِإِرَادَةِ اللَّهِ .. لِكَلِمَاتِ مُحَمَّدٍ .. وَقَالُوا لَهُ: (لَوْ خُضْتَ الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ) .. وَسَارُوا وَرَاءَهُ يَتَفَانَوْنَ فِي الدِّفَاعِ عَنْ عَقِيدَتِهِمْ .. كَانُوا يَمُوتُونَ سُعَدَاءَ .. آهْ .. يَجِبُ أَنْ أَضَعَ حَدًّا لِهَذَا الْعَذَابِ كُلِّهِ ..

وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ، فَقَدِمَ أَحَدُ الْعَبِيدِ:

- (اسْتَمِعْ إِلَيَّ جَيِّدًا ..).

- (أَمْرُ مَوْلَايَ ..).

- (فَلْنَسْتَعِدَّ لِلرَّحِيلِ).

- (إِلَى أَيْنَ يَا مَوْلَايَ؟).

- (لَا شَأْنَ لَكَ بِذَلِكَ .. إِنَّنِي آمُرُ، وَعَلَيْكَ التَّنْفِيذُ ..).

- (سَمْعًا وَطَاعَةً يَا سَيِّدِي ..).

ثُمَّ قَالَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ مُلَوِّحًا بِسَبَّابَتِهِ وَمُحَذِّرًا: (لَكِنْ .. حَذَارِ أَنْ يَشْعُرَ بِنَا أَحَدٌ .. يَجِبُ أَلَّا تَعْلَمَ الطَّائِفُ أَمْرَ هَذَا الرَّحِيلِ .. سَنَنْطَلِقُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ .. تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ .. سَنَنْطَلِقُ مُسْرِعِينَ .. دُونَ أَنْ يُعْلَمَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْءٌ .. أَتَفْهَمُ؟).

قَالَ الْعَبْدُ: (أَتَنْوِي الذَّهَابَ إِلَى عَاتِكَةَ؟!).

صَرَخَ مَالِكٌ فِي حِدَّةٍ: (أَيُّهَا الْفُضُولِيُّ الْعَاقُّ .. لَا دَخْلَ لَكَ فِي شَيْءٍ .. انْصَرِفْ ..).

هَذَا الْمَلْعُونُ قَدْ ذَكَّرَهُ بِعَاتِكَةَ .. إِنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْسَاهَا .. إِنَّ عَاتِكَةَ قَدْ مَرَّغَتْ قَلْبَهُ فِي الذُّلِّ وَالْعَذَابِ، وَعَاتِكَةُ سَخِرَتْ مِنْ آرَائِهِ، وَتَجَاهَلَتْ حُبَّهُ، وَعَاتِكَةُ شَهِدَتْهُ وَهُوَ يَفِرُّ مَذْعُورًا، حِينَمَا قَالَتِ الْجَارِيَةُ: إِنَّهَا رَأَتْ غُبَارًا يَسُدُّ الْأُفُقَ. لَقَدِ اسْتَطَاعَتْ عَاتِكَةُ أَنْ تَسْخَرَ مِنْهُ، وَتُحَطِّمَ كِبْرِيَاءَهُ وَهُوَ فِي عُنْفُوَانِ مَجْدِهِ وَسَطْوَتِهِ؛ فَكَيْفَ تَخْشَعُ لَهُ الْآنَ، بَعْدَ أَنِ انْهَارَتْ قُوَّتُهُ، وَذَبَلَ مَجْدُهُ، وَانْفَضَّ الْأَتْبَاعُ مِنْ حَوْلِهِ؟! أَيُعْطِيهَا الْفُرْصَةَ لِتُظْهِرَ الشَّمَاتَةَ وَالسُّخْرِيَّةَ الْمُرَّةَ مِنْ جَدِيدٍ؟! ..

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْفُضُولِيُّ! .. إِنَّكَ تَنْكَأُ جِرَاحًا لَمْ تَنْدَمِلْ بَعْدُ فِي قَلْبِي الْحَزِينِ .. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مَالِكًا يَتَذَكَّرُ فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ عَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ ذَاتَ الرُّمُوشِ الطَّوِيلَةِ، وَسُمْرَتَهَا الْفَاتِنَةَ الْمُشْرَبَةَ بِالْحُمْرَةِ، وَقَسْوَتَهَا فِي التَّعْبِيرِ، وَكَلِمَاتِهَا الَّتِي تَنْغَرِسُ فِي قَلْبِهِ كَالْمُدَى الْحَادَّةِ، وَتَمَرُّدَهَا عَلَى حُبِّهِ وَكِبْرِيَائِهِ .. يَذْكُرُ كُلَّ ذَلِكَ فَيَخْفِقُ قَلْبُهُ .. آهْ .. تِلْكَ الْقَلْعَةُ الْمَنِيعَةُ الَّتِي لَمْ يَسْتَطِعِ اقْتِحَامَهَا .. إِنَّ هَزِيمَتَهُ أَمَامَهَا لَا تَقِلُّ قَسْوَةً عَنْ هَزِيمَتِهِ أَمَامَ مُحَمَّدٍ! ..

عَلَّمَتْهُ عَاتِكَةُ كَيْفَ يَكُونُ الْحِرْمَانُ، وَهُوَ يَمْلِكُ آلَافَ الرِّجَالِ وَآلَافَ السُّيُوفِ .. وَعَلَّمَتْهُ كَيْفَ يَتَحَمَّلُ الظَّمَأَ الْقَاتِلَ وَالْكَأْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ .. كَانَتِ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَتَحَدَّى قُوَّتَهُ، وَتُسَفِّهُ آرَاءَهُ، وَلَا تَسْتَسْلِمُ لِأَمْرِهِ أَبَدًا ...

كَانَ قَادِرًا عَلَى سَحْقِهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ! وَكَانَ فِي إِمْكَانِهِ أَنْ يَسُوقَهَا أَسِيرَةً، وَيَشْوِيَ جَسَدَهَا بِالسِّيَاطِ، وَيَسْلُكَهَا فِي زُمْرَةِ الْجَوَارِي أَوِ الْإِمَاءِ دُونَ أَنْ يُعَارِضَهُ أَحَدٌ .. لَكِنَّهُ كَانَ عَاجِزًا عَجْزًا مِنْ نَوْعٍ غَرِيبٍ .. وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُمْكِنُ الِاسْتِيلَاءُ عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ إِلَّا الْحُبَّ .. الْحُبُّ لَا يُؤْخَذُ قَهْرًا .. بَلْ يُعْطَى عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ .. إِنَّهُ حُرٌّ مُتَمَرِّدٌ .. لَوِ انْتَزَعَ الْحُبَّ عَنْوَةً لَمَا كَانَ حُبًّا .. لَنْ يَشْعُرَ بِذَلِكَ الْمَذَاقِ الشَّهِيِّ، وَلَا تِلْكَ الْأَشْوَاقِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي تَعْمُرُ قَلْبَهُ بِالْأَفْرَاحِ ..

***

- (حَانَ الرَّحِيلُ ..).

قَالَهَا الْعَبْدُ فِي جُمُودٍ، فَخَفَقَ قَلْبُ مَالِكٍ، وَظَلَّ صَامِتًا بُرْهَةً، ثُمَّ انْتَزَعَ نَفْسَهُ مِنْ تَرَدُّدِهِ وَأَفْكَارِهِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ: (هَيَّا ..).

وَانْطَلَقَ مُتَسَتِّرًا بِالظُّلْمَةِ، يُلْهِبُ جَوَادَهُ بِالسَّوْطِ، وَمَعَهُ فِئَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْعَبِيدِ، وَلَمْ تَعْلَمِ الطَّائِفُ بِالْخَبَرِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَطَعَ مَالِكٌ مَسَافَةً كَبِيرَةً، وَأَصْبَحَ قَرِيبًا مِنْ مَنْزِلِ مُحَمَّدٍ .. وَمَرَّ مَالِكٌ فِي طَرِيقِهِ بِالْمَكَانِ الْأَخِيرِ الَّذِي أَوَتْ إِلَيْهِ عَاتِكَةُ .. لَمْ يَجِدْ إِلَّا رَمَادَ الْمَوَاقِدِ، وَقُدُورًا مُهَشَّمَةً، وَأَوْتَادًا تَالِفَةً، وَبَقَايَا حَيَوَانَاتٍ .. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ حَتَّى بَلَغَ مُحَمَّدًا.

كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَحَظَاتِ اللِّقَاءِ سَتَكُونُ مِنْ أَصْعَبِ اللَّحَظَاتِ فِي حَيَاتِهِ؛ فَسَتَرْمُقُهُ مِئَاتُ الْعُيُونِ .. سَيِّدُ هَوَازِنَ يَأْتِي مُبَايِعًا مُسْلِمًا .. لَكِنَّ مَالِكًا يَعْجَبُ لِنَفْسِهِ؛ إِذْ يَنْزِلُ بِقَلْبِهِ هُدُوءٌ وَاطْمِئْنَانٌ مِنْ نَوْعٍ غَرِيبٍ لَمْ يَأْلَفْهُ طُولَ حَيَاتِهِ .. إِنَّهُ يَمْضِي مَرْفُوعَ الرَّأْسِ، بَاسِمَ الثَّغْرِ، يَدْخُلُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَكَأَنَّهُ كَانَ يَحِنُّ لِذَلِكَ اللِّقَاءِ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ .. أَهُوَ السِّحْرُ؟!

- (يَا إِلَهِي .. إِنَّنِي أَشْعُرُ بِأُلْفَةٍ غَرِيبَةٍ لِهَؤُلَاءِ النَّاسِ، وَتَخْفِقُ فِي رُوحِي سَعَادَةٌ كُبْرَى، كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟!).

وَخَرَجَ مَالِكٌ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ مُؤْمِنًا ..

وَالْتَقَى بِأَهْلِهِ .. إِنَّهُ يَرَى زَوْجَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِشُعُورٍ جَدِيدٍ .. يَشْعُرُ بِالشَّوْقِ الْجَارِفِ نَحْوَهَا .. إِنَّهَا تَبْتَسِمُ فِي سَعَادَةٍ تَنْطِقُ بِهَا حَرَكَاتُهَا وَنَظَرَاتُهَا وَتَعْبِيرَاتُ وَجْهِهَا، وَهُوَ يَلْتَقِي بِهَا بِنَفْسِ الْأَحَاسِيسِ الَّتِي كَانَتْ تَرْوِي عَوَاطِفَهُ حِينَمَا عَرَفَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَهَامَ بِهَا حُبًّا .. كُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ، وَيُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ ..

وَفِي الطَّرِيقِ إِلَى الرَّبْعِ الْقَدِيمِ .. خَلْفَ جَبَلِ حُنَيْنٍ .. كَانَ مَالِكٌ يُرَافِقُ زَوْجَهُ، تَحَسَّسَ رَأْسَهَا فِي حُبٍّ بَالِغٍ، وَهَمَسَتْ هِيَ فِي حَيَاءٍ: (لَقَدْ أَسْلَمَتْ عَاتِكَةُ .. و .. وَتَزَوَّجَتْ ..).

قَالَ -وَقَدْ خَفَقَ قَلْبُهُ-: (كَيْفَ عَرَفْتِ؟!!).

- (لَقَدْ وَفَدَتْ لِزِيَارَتِي .. كَانَتْ أُخْتًا صَالِحَةً بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ ..).

تَمْتَمَ فِي صِدْقٍ، وَقَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ خَجَلًا: (أَيْ حَبِيبَتِي .. أَنْتِ نِعْمَةٌ كُبْرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ .. وَلَا يَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشِ قَلْبِي سِوَاكِ ..).

تَخَضَّلَتْ عَيْنَاهَا بِدُمُوعِ الْفَرَحِ، وَتَمْتَمَتْ وَهِيَ تَحْتَضِنُ ذِرَاعَهُ فِي حُبٍّ: (كَانَتْ رِحْلَةً شَاقَّةً .. لَكِنَّنَا عُدْنَا مِنْهَا بِانْتِصَارَاتٍ عُظْمَى .. لَمْ تَنْهَزِمْ يَا مَالِكُ .. وَلَكِنَّكَ انْتَصَرْتَ .. إِنَّهُ يَوْمٌ عَظِيمٌ ..).

وَسَمِعَا قَائِدَ النَّاقَةِ وَهُوَ يُغَنِّي بِصَوْتٍ شَجِيٍّ أَبْيَاتًا لِلشَّاعِرِ الْمَعْرُوفِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَصَارِمٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ

فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ -لَمَّا أَسْلَمُوا- زُولُوا

شُمُّ الْعَرَانِينِ، أَبْطَالٌ، لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ ... قَوْمًا، وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا

وَهَمَسَتْ قَائِلَةً لِمَالِكٍ: (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّهُ يَوْمٌ عَظِيمٌ؟!).

تَمْتَمَ فِي سَعَادَةٍ: (أَجَلْ ..).

وَمَالَ عَلَيْهَا، وَالدُّمُوعُ عَالِقَةٌ فِي أَهْدَابِهِ، وَهَمَسَ: (أَتَعْتَقِدِينَ أَنَّ أَيَّامَنَا السَّعِيدَةَ الْقَدِيمَةَ سَتَعُودُ؟ ..).